

عذارى أوراق التوت

|



عنوان الكتاب: عذارى أوراق التوت، رواية

الكاتب: سعدية عبد الحليم

الطبعة الأولى: 1441 هـ - 2020م

© جميع حقوق الطباعة والنشر الورقي والإلكتروني محفوظة

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر

ب ض: 03 - 11 - 520 - 00408 - 5 - 022

س ت: 9882

44، ش سوتير، أمام كلية حقوق جامعة الإسكندرية، دور3،

الإسكندرية، مصر

موبايل: 01030036491 هاتف: 034830903 - 002

بريد إلكتروني: levantegsy@gmail.com

موقع إلكتروني: www.levantcenter.net

رقم الإيداع: 2020/ 15603

الترقيم الدولي: 8-30-6815 - 977 - 978

التدقيق والإخراج: القسم الفني في مركز ليفانت، د: هانم العيسوي

تصميم الغلاف: إيهاب رشدي

عذارى أوراق التوت

رواية

سعدية عبد الحليم

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر، الإسكندرية

2020

إهداء

إليهم..

الذين تأخذهم الصدف

إلى حيث تنتظرهم الأسرار والخبايا

على دروب الصعاب

تعليق قبل البدء

بقلم الشاعر والناقد عبد المنعم كامل

ليست هذه دراسة نقدية، وليست تفسيرًا لهذا العمل الأدبي الجميل، وإنما هي تعقيب على حال نفسية تملكتني بعد قراءة الرواية، غير أنها في نفس الوقت ليست مجرد انطباع، فقد قرأت الرواية مرات، وانكشفت أمامي طرقات الحكايات ودهاليزها؛ لأنني شعرت بتماس كبير مع الشخصيات والأحداث ومواقف الحياة المختلفة .

إن السرد القصصي في حياتنا شيء أكبر من التسلية أو خلق المتعة العقلية والروحية العابرة، ففي التسلية والمتعة العابرة نهرب من شيء ما، أو نتخلص من شعورنا بالملل ، وليس ذلك غاية السرد في أي أدب عظيم، السرد يحاول أن يبعث في أرواحنا جذورها التي ذبلت، ويجدد في وعينا ما نعرفه عن أنفسنا وعن العالم، إنه يؤرخ لأرواحنا وعقولنا ومنعرجات خيالنا في لحظات عشناها، كما يكشف عن حدود أمانينا وتطلعاتنا اليوم وغدا، ولهذا بات السرد عملا صعبا وخالقا وعظيم الفاعلية.

قرأت الرواية فإذا بالكاتبة تضعنا في تقنية مختلفة كثيرًا عما عهدناه في الرواية الكلاسيكية، إذ غادرت تقنية الزمن القديمة التي كانت تضع الأحداث على خط مستقيم يتجه من الماضي إلى الحاضر، وتتحرك فيه الشخصيات كلها بحيث تسلم الواحدة منها إلى أختها في سلسلة زمنية متصلة الحلقات على الخط المستقيم، لم تلجأ الكاتبة إلى هذه التقنية، وإنما لجأت إلى تقنية الدوائر الزمنية، فهي تنطلق من الماضي باتجاه الحاضر وهي تسرد حكاية شخصية واحدة من شخصيات الرواية بأسلوب

المتكلم، ثم تتوقف فتلتقط شخصية أخرى قد تكون نقطة البدء في ماضيها أقدم أو أحدث من الشخصية الأولى، عبر ضمير المتكلم أيضاً، ثم تلتقط شخصية ثالثة، وهكذا، وخلال السرد تتلاقى الدوائر وتتقاطع في تنام مستمر ومتدفق، ثم تتداخل الدائر فيذوب بعضها في بعض، دون أن تفقد أية دائرة منها ملامحها التكوينية الفارقة، ففي كل دائرة تلقى لنا شخصية المتكلم، سواء كان رجلاً أو امرأة، وسواء كان شاباً أو شيخاً، عبر سرده ما يشبه الاعتراف المقدس، لا يقف عند حد اجترار الذكريات، وإنما تبني اللغة صراعات الشخصية من خلال عناق أخذ بين فعلي الماضي والمضارع في محاولة لإبراز الخفي من كل ذات نلتقي بها، فنرى العالم من وجهة نظرها، ونرى العالم وهو ينمو أو يضمحل، ونرى أعماق المتكلم وتداعيات الأحداث على وعيه وهي تتغير متسارعة كدقائق السيل .

سيقف القارئ طويلاً عند كل متكلم، وسيقرأ زمنه الخاص، وسيتعرف على وقائع حياة كل شخصية في مرحلة تاريخية تدور في النصف الثاني من القرن العشرين والعقدين الأخيرين منذ مطلع الألفية الثالثة حتى لحظتنا الحاضرة، ذلك أننا نلتقي بشخصيات حاربت وانتصرت في سبعينيات القرن الماضي، وشخصيات تعاني متغيرات المكان في العقدين الأخيرين، فأما الذين حاربوا وعبروا وانتصروا فقد كانوا يحملون عبق ماضيهم وخصوصيته، هذا الماضي الذي لا بد من أنه بدأ في خمسينيات القرن العشرين، وسيتعرف القارئ على تداعيات انتقالهم بين أبنية اقتصادية وسياسية ومناخات عقلية وروحية متباينة، وسيقرأ ما أنتجه الانفتاح فيما بعد الحرب من أثر نفسي مدمر وثقيل، وسيمكن للقارئ أن يمسك بتلابيب الحقائق التي لا يجدها مطلقاً في كتب التاريخ.

إن من مهام الرواية أن تؤرخ على نحو من الأنحاء، تؤرخ الواقع النفسي غير المرئي لعين الفيلسوف أو أستاذ التاريخ، تؤرخ لمشكلات الذات والمجموع من الداخل، هذا الداخل الذي لا يراه أستاذ التاريخ قط.

لقد كان للتحول الرأسمالي في عصر الانفتاح أثره الكبير على حياة الناس، وكان هذا الأثر سلبياً فيما يتعلق بالطبقة الوسطى والطبقات الفقيرة، إذ خلخل الضغط المادي علاقة الإنسان بالمكان ووجه له ضربة في مقتل، ترك كثير من المصريين بلادهم وسافروا من أجل العمل، وكان لذلك مردوده السلبي على العلاقات الأسرية الضيقة والعلاقات الاجتماعية الأوسع، واضطر حاملو الشهادات العليا والمتوسطة إلى قبول أعمال لا يعرفونها كالبيع والشراء في الأسواق العامة، وحمل بضائع الناس على أكتافهم أو عربات النقل المتدنية، بل اضطر عدد منهم إلى قبول الأعمال الرخيصة من الوجهتين المادية والأخلاقية لكي يقاوم شبح الموت، ولم يتوقف التأثير السلبي على حاملي الشهادات، بل تجاوزهم إلى المحاربين المنتصرين؛ فأفقدتهم الشعور بالقيمة، وأفقدتهم الشعور بأي مضمون حقيقي لفكرة المقاومة من ناحية ومعنى الوطن من ناحية أخرى.

لقد رصدت الرواية منحنيات متعددة في حياتنا ربما يكون تأملها باباً نكتشف من خلاله الأسباب التي أوصلت المجتمع المصري إلى ما وصل إليه من متناقضات جمة على المستويات العقلية والروحية والمادية التي لم تتوقف عند شريحة واحدة بل طالت كل فئات المجتمع في هذه العقود الثلاثة الأخيرة على الأقل .

لا أريد أن أستطرد فأفسد على القارئ اكتشافاته الشخصية وهو يجري مع الرواية في سردها الممتع، ولما كان هذا تعقيباً فحسب، فقد أردت أن أبتعد فيه عن كشف شخصيات الرواية أو حتى الإشارة إلى أسمائهم،

وإنما أَدَع القارئ يتعرف عليهم كما قررت الروائية نفسها في كلمتها
قبل الدخول في زمن الرواية.

عبد المنعم كامل

فاتحة السرد

لحظة فارقة في حياتك، تلك التي تلقيها الصدفة أمام عينيك، لا ذنب لك فيما حدث، ولكنك ستحملة كما يحمل أبطال التراجيديا مآسيهم، ويعيشون حياتهم في غرائب أقدارهم.

دعوني أحدثكم عنهم هؤلاء الذين تلقيهم الصدفة في طريقي، فتفاجئني حكاياهم، لأجد نفسي بين تشابكات عقدهم، هل كنت أبحث عنهم، وأنا أسير بذهن شارد، وخيال متوثب لالتقاط خيوط الحكايا.

أنا تلك المرأة التي أنهكتها أحداث الحياة، ولست وحدي هكذا، نحن كثيرات وإن اختلف التلقي، فأظل واحدة من اللاتي يشتبكن بزحام الحياة والناس.

أنا هنا لأكتب لكم عنهم وعنكم، دعمكم من تنظير النقاد وأحاديثهم، لا تلتفتوا إلى لغوهم عن موت المؤلف، نحن نعيش وإن كتبنا كلمة النهاية في آخر سطر، نكتبها وننظر لكم بخبث، الحقيقة أننا نخدمكم، حين نضع آخر جملة في الرواية بعد أن نكون قد أنهكناكم ركضاً ومتابعة، كي تصلوا إلى حلول ما تظنونه عقداً أصلية وفرعية بينما نبقى نصل آخر سطر بعقد أخرى.

لسنا وحدنا نتحلى بداء الخبث في تتبع الحكايا، أنتم أيضاً خبثاء حين يدفعكم فضولكم؛ لتتبع مصائر ساكني الحكايا، دعوني أقول لكم: أنتم تبحثون عن أنفسكم في حكايانا.

ربّما لا تدركون أنّ عقداً قد أُبرِمَ بالفعل فوق هذه الصفحات، وأنكم لا تملكون فسخ هذا العقد، مادمتم تسيرون فوق السطور، وتتبعون انحناءات السرد وتشابكات العقد.

لعلني لا أفشي سرّاً لو قلت لكم: إنني لو لم أجدهم لاصطنعهم خيالي، وليسوا بعيدين عنكم، ولست بعيدة عنهم، هم بعض من أسراري وتفاصيل من غرفة تذكاراتي.

على الطريق

الشارع الذي نمّر فيه هادئ ومريب، لا تسمع فيه إلا خشخشة أوراق الشجر، وأصوات العصافير العائدة لأعشاشها، ودبيب خطوات المحبين، وقليل من المارة، وهمس بين الثنائيات لا تكاد تتبين منه حرفاً، ومشاهد ممارسات تقف على حافة الفعل الفاضح في الطريق العام.. أنا والتوتر الذي انتابني حيال تلك السيدة، التي بدلت مسار وجهتها، حينما أشارت لي على الطريق، لندخل ذلك الشارع، الذي يمر بين البيوت والفيلات الهادئة قريباً من النهر، وأبلغتني أنها ستعود لوجهتها، ريثما تنتهي من إنجاز شيء ما هنا، وأني - لا شك - سأتقاضى أجرًا نظير التوصيل والانتظار.

قليلة هي سيارات الأجرة، التي تمر في تلك الشوارع الهادئة والمغلقة على سكانها من طبقة ما قبل ظهور المنتجعات الجديدة؛ والتجمعات السكنية المترقعة عن القرب من زحام العامة، البعيدة عن وسط المدينة بضجيجها.

بعد سير أمتار قليلة من بداية الشارع طلبتُ مني التوقف بجانب الطريق المحفوف بالأشجار، تَوَقَّفْتُ.. فأخذتُ حقيبة كانت معها، ونزلت وأشار لي أن أنتظرها قليلاً، حيث توقفنا، وتحركت على الرصيف جانب السيارة، حتى اختفت خلف جذوع الشجر.

كنت أمر بالقرب من محطة (مترو الأنفاق) بحي الدقي، حين أشارت لي تلك السيدة، و ركبتُ معي بعباءتها السوداء الرخيصة والحجاب الملون الذي يغطي رأسها، لم يكن وجهها المألوف يفصح عن شيء سوى أنها سيدة من سيدات الطبقة الشعبية في بداية عقدها الثالث.

اختارت أن تجلس في المقعد المجاور لي، ظلت طوال الطريق تختلس النظر إلي، وأنا أحاول أن أنشغل بالقيادة.. راودتني بعض الظنون، وتقلّبت الاحتمالات في عقلي، لكنني ومن كثرة ما قابلت في فترة عملي كسائق سيارة أجرة، كنت أنحي بعض الظنون، وأتشبث ببعضها، و كلما حاولت التغاضي عن نظراتها لمحتها تحاول التمعّن في وجهي كمن يتبين ملامح وجه يعرفه، أو ربما تحاول الاحتفاظ بتفاصيل الوجه في الذاكرة، راودتني مخاوف شتى، وأسئلة تدور في ذهني وتسطر انفعالاتها في أسارير وجهي.

ترى ماذا وراء هذه المرأة من أسرار!؟

فأنا على يقين، أنّ وراء كلّ سيدة سرّاً، حتى لو كانت تلك السيدة هي (سيدة أم الغايب) التي تفتersh ركنًا على ناصية شارعنا؛ لبيع الجرجير والليمون، ونحن لا نعرف ولدها الذي تكّتى به..حتى لو كان لديها ولد

فلماذا تكنى به غائبًا! ولا نعرفُ لها أسرةً أو بيتًا تعود إليه؛ حينما تنهي يومها حاملة ما بقي من أشياءها في سلة على رأسها.

كلهن يحملن أسرارًا في حقائبهن وأكياس صدورهن، هكذا علمتني التجربة، وهكذا فاجأني الواقع، بما لا أتوقَّعه من المحيطين بي، بل من ذوي القربى وصلات الدم، حتى بتُّ أنا من يحتاج تفحص وجوه النساء، والبحث خلف سيرهن لعلني أصادف جزءًا من تاريخي.

أما تلك السيدة، التي تثير قلقي حاليًا، لا أعرف سببًا لنزولها في شارع هادئ حاملة حقيبة سفر صغيرة، كما تركت حقيبة يدها على المقعد بجانبني، لعلَّ أول ما يراودني بشأنها.....!

ماذا لو أنها في مهمة وتستخدمني للتستر والاحتماء؟ ربما نزلت لتسلم حقيبة بها أشياء يعاقب عليها القانون.

أشعلت سيجارة، أنفث منها دخان ضجر الانتظار والقلق، الذي يأتي في نهاية يوم من العمل بين أناس مختلفي الأهواء والأشكال، لم أكن قبل عملي كسائق سيارة أجرة أتخيلهم.

مرت لحظات حتى فاجأتني إشارة صفير هامس، تصدرها السيدة التي نزلت وتوارت خلف جذع شجرة في أثناء انشغالي بإشعال سيجارتي، كررت صفير النداء الهامس، أشرت إليها، فخلعت عباءتها

السوداء، وطوتها وبدت مرتدية فستاناً بنفسجياً منسدلاً، يحدد تفاصيل جسدها الملفوف بلا سمعة، كما خلعت حذاءً مستويًا، وانتعلت غيره ذاكعب عال، ثم كشفت شعرها، وحلت وثاقه، فغطى كتفيها، بدا أسود مجعدًا وطويلاً، أخرجت من حقيبتها شالاً فردته، كنت أنا قد ترجلت من السيارة بتوجس إثر إشارتها، فطلبت أن أتقدم منها، اقتربت، وضعت الشال بين يدي، وطلبت أن أساعدها في ارتدائه، بتردد وضعته على كتفيها، وأنا مأخوذ بما تفعل، حائر بين رغباتي وظنوني، ماذا تريد مني هذه المرأة؟ هل هي امرأة تصيد الرجال على الطريق؟ هل هي لصة تتحايل كي تحصل على مبتغاها؟ لا أدري لماذا لا أعرض! أعود نحو سيارتي.. ولا أدري لماذا نجحت في لحظات أن تحرك بي نوازع ذكورتى، لا شيء يمنعني سوى مخاوف تكبلني وبعض من وصايا حملتها عند بداية عملي كسائق أجرة.

- اعدل لي الشال الله يخليك

-

بيد حائرة حاولت مساعدتها، ضاقت ببدايتي الرجولية في مساعدة أنثى، رمقتني بنظرة ألفت بي بين براثن الهواجس المجنونة والخوف المتعقل.

التوجس، الحيرة، الارتباك، مشاعر تبدو بسيطة أمام ما يمتلك شاب في مثل تلك المواقف.

عدلت من هيئتها قدر استطاعتها، والحقيقة أنها حتى لو تركت الشال متهدلاً بعفوية، ما نقص من جمالها شيء، وربما ازداد غموضاً، تحركت ناحية السيارة جلست مكانها، وعدت إلى مكاني خلف مقود السيارة.

تنفست ارتياحاً لانتهاؤ الموقف الغامض المثير، وتعجلت التحرك من هذا المكان داعياً الله أن نمضي قبل أن تداهمننا المفاجآت.

تلك الشوارع الهادئة المحفوفة بالأشجار على الجانبين تعاند جمال الطبيعة فيها، حين تصبح مأوى للهاربين من أعين الملاحقة والراغبين في انتهاز الفرص وابتزازهم، وبعض ممن يداهمون السائرين والمتوقفين، ويسلبون أموالهم وممتلكاتهم من هواتف ونقود وسيارات.

ومن المعتاد في تلك الأماكن أن الشرطة- أيضاً - تداهم هؤلاء الذين يسيرون في تلك الشوارع، وهم يمارسون الحب، ويتسكعون على الأرصفة، أو يستترون بالسيارات، أو خلف الأشجار، من يضمن لي ألا أقع فريسة لأي من الفريقين، وأنا لا أعرف ماالذي تخبئه تلك السيدة.

نبهتها لخطورة وقوفنا طويلاً في هذا المكان، هزت رأسها بإيماءة وطلبت فتح ضوء السيارة الداخلي، بينما كنت أبدأ خطوات التحرك، أخرجت مرآة من الحقيبة وبعض أدوات التجميل، وانهمكت في وضع المساحيق والألوان على وجهها وشففتيها وجفنيها، كانت تبسمل وتتلو دعوات لم أتبينها.

المسافة التي ستقطعها إلى وجهتها ليست قصيرة بحساب شوارع القاهرة المزدهمة مهما اختصرتها الكباري والأنفاق، اختلست نظرة إليها، بدا وجهها غجرياً لونه المساحيق الرخيصة، ولا أدري كيف أضفت تلك الألوان على سيماء وجهها مسحة أنوثة منفردة.

كنت أود أن أحدثها، لكن شعور القلق والارتباب الذي ينتابني حيالها، يجعلني أقف في منطقة وسطى محيرة بين الفضول والخوف، بين الإعجاب والارتباب.

اليوم الأحد، ومن حسن الحظ الذي لم يحالفني كثيراً في حياتي أن الشوارع ليست مزدهمة كعادتها، المرأة التي تجاورني في السيارة تستنفر الحواس، وأنا أحاول كبح جماح غرائزي، حتى نسيت المخاطر والشكوك التي ساورتني، وبدأت أسترق النظرات إليها، وحملي خيالي المشحون على أسرة الغرائز رويداً رويداً، كنا نعبر النفق الطويل الفاصل بين وسط المدينة وشرقها، نسيت حينها كل ما حمّلي به أبي من وصايا

حين سلمني هذه السيارة لأعمل عليها، وما قصّه عليّ من أسرار المهنة وشقائها.

كأنّ العبور تحت نفق يشكّل فوقك نصف قوس يحتويك، وكأنني منقول عبر برزخ الشهوات، الصمت والرائحة النفاذة لعطر رخيص ومستفز، وألوان كلما مررت تحت ضوء تفتحت كزهرة دوار الشمس، ثم الوقت المترنح سكرًا، وبدي التي كلما مددتها لتبديل السرعة نقلتني لمشاعر جامحة، مهما تحصّنت منها بكل ما حملت به من مواظ ووصايا تقفز حواجزها، وتنتقل إلى سرعة أعلى.

دفعني شيطان الحواس، وأنا أدفع ناقل السرعة لاجتياز مرتفع الطريق، أن أجرب التلامس الذي يبدو عفويًا، ظلت المرأة على هدوئها الغامض، كررت الفعلة في المهبط باقتراب أكثر، اشتعلت حواسي كلها، وددت لو ضممتها، لو اعتصرت ضلوعها، وأنا أغوص في قبلة انتقال من سرعة لسرعة أكبر، بدت كمن يغوص في أحلام اليقظة، التفتُ نحوها لترى عيني، وهما تفيضان رغبة، بادلتني نظرة بنظرة، ذابت الوصايا كلّها، وتبلورت فكرة واحدة، ماذا لو بدلنا المسار، إلى حيث يعيش محمود زميلي منفردًا، رفعت هاتفي أطلب محادثته، غافلني شاب متهور يتحرش بنا على الطريق وأنا بين القيادة والبحث عن الرقم، مرّ جانبنا يركب دراجةً ناريةً تطلق صوتًا مخيفًا، كان مسرعًا حتى كاد أن

يصطدم بنا، لحظة فارقة تلك التي انحرفت به قليلاً لنتفادى تهوره، وأنا أنزل بناقل الحركة لدرجة أقل، ويمضي هو مسرعاً؛ لنفيق من خيالاتنا.

لَقْنَا صمت طويل، عبرنا الشوارع المتصلة طولياً إلى مصر الجديدة، اقتربنا من المكان المقصود، ميدان تريومف، أخرجت ورقة من حقيبة يدها وهاتف صغير قديم، طلبت أرقاماً، وتحدثت بهمس، ثم سألتني عن الشارع الذي نجتازه، ثم بدأت توجّهني يميناً ويساراً، حتى توقفتنا أمام بناية من العماير القديمة، نزلت تاركة حقيبة الملابس التي بدلتها، نبهتها لها، فتوقفت خارج السيارة تدفع أجره التوصيل وهي تحدثني.

- خليم معاك أنا بايتة هنا الليلة وبكرة هتعدّي ترجعني على الساعة ثلاثة العصر.

..... -

قرأت في عيني اسـتفساراً متعجباً، ما الذي تأتئين هنا من أجله وتبئتين ليلة؟!

لو لم تكن قد استعدت للموقف بالتجميل، كانت ستفتح أمامي احتمالات أخرى، لكنّها لم تتركني لظني، بل أكدته بإيماءة من رأسها.

- صحيح، تفكيرك صح ما تخلبطش نفسك بس أنت، وأدعي لي

- هاه
- أنت اسمك إيه؟
- حازم
- أدعي لي يا حازم إني أعجب الراجل اللي أنا طالعة له عشان يكافئني كويس
- أدعيلك!؟
- أبوه أدعي لي، هو أنت فاكر أن الدعاء بالخير ما يجوزش علينا، لا طبعًا يجوز ونص
- ليه يعني!؟
- عشان احنا اللي شايلين زبالة الدنيا دي وناسها على راسنا وماشيين من غير ما نشكي، أدعي لي بس أنت إن رينا يحبب فيا زبون الليلة، وبكره تيجي تاخدي من هنا مجبورة خاطر الساعة ثلاثة العصر، لو عدت ثلاثة وربع ومنزلتش بلغ حد من اللي يرد على رقم من الأرقام دي..يلا سلام
- ناولتني ورقة مكتوب فيها رقمين لهواتف متحركة، واندفعت صوب الباب صعدت درجات السلم تجاه المصعد، واختفت داخله.
- دفعتُ ناقل السرعة لأول التحرك، وتلعثمت على شفتي جملة (بإذن الله) المعتادة في كل الوعود القادمة، سرت عبر شوارع مصر الجديدة، لا أدري من أين إلى أين حتى استوقفني شاب بصحبة فتاة.

ركب الشاب في المقعد المجاور لي وركبت الفتاة في المقعد الخلفي، وطلب الشاب توصيلهما إلى مصر القديمة.. وطوال الطريق لم يتحدثا بكلمة، لكنني استشعرت بكاء الفتاة من كثرة استخدامها للمناديل الورقية وصوت تنفسها، أما الشاب فبقي صامتاً بحزن.

حين اقتربنا من وجهتهما، ناولته الفتاة من فوق كتفه مندبل ملفوف على أشياء، أطبق كفه عليها بعصبية، ولم يلتفت نحوها، حتى وصلا إلى وجهتهما، ناولني الشاب أجر التوصيل، ودخلت الفتاة باب البيت القديم الذي توقفنا أمامه، ومضى الشاب مبتعداً.

أسندت رأسي المشحون بالانفعالات على عجلة القيادة، ورحت في إغفاءة شرود، أفقت على يد فوق كتفي توقظني.

- العباسية يا هندسة

أشرت له بالموافقة، فركب رجل مهندم، جلس بالمقعد الخلفي يحسب أرقاماً بصوت مسموع ويعيد الحسبة مرات، ثم يجادل نفسه ويكرّر أرقاماً أخرى، في البداية ظننته يتحدث بالهاتف، أقيت نظرة من خلال المرأة، فوجدته منهمكاً في أوراقه، والهاتف بيده اعتقدت أنه يستخدمه لمراجعة حساباته، أصابني توتر وملل من كثرة تكرار الأرقام، الأرقام تثير أعصابي وتكدّر نفسي، هذا الكدر الذي تركته خلفي، منذ أنهيت خدمتي العسكرية، تكرار الأرقام، كالوقوف الطويل محققاً لعصا مغرزة

في الأرض، كالاستماع لدقات متكررة بنفس الإيقاع، زاد توترتي وقررت أن أنهي الموقف، أخذت الجانب الأيمن من الطريق، وخفضت السرعة، ثم توقفت وأشرت للرجل أن ينزل، رمقني بنظرة غريبة، ونزل من دون أن يدفع الأجرة، ولم أطلبه بشيء، بدأت أتنفس بعمق؛ لأستعيد هدوئي، حتى استرحت قليلاً، وقررت أن أنهي عمل اليوم، وأعود لألقي جسدي على فراشي، ومنذ تذكرت الفراش قفز إلى مخيلتي طيف السيدة، التي تركتها في مصر الجديدة، لأعود إليها في الغد، وأنا لا أدري هل سأفي بوعدي أمام غموض حالها، أم أتركها وشأنها، هذا أمر يحتاج إلى تفكير متعمّل وهادئ.

أما الآن، فلا رغبة لدي سوى بالتوقف عن حمل المزيد من الناس، والسير وفق رغبتهم ووجهة وصولهم، أتعبتني حوادث اليوم وتوتراته واشتعال حواسي وانهايارها وخيالاتي الماجنة، التي دفعتني للعودة إلى فراشي.

أنا حديث العهد بالعمل كسائق سيارة أجرة، في كل يوم ألتقي وجوهاً و طبائعَ مختلفة لأناس، قد يبدون من مظاهرهم عاديون جداً، بعضهم صامت تماماً، وبعضهم ثرثار، وبعضهم فضوليّ، وبعضهم سمج، وبعضهم متعال، وبعضهم غامض، وبعضهم مريب مثير للقلق.

ها أنا ذا أمضي في طريقي، لا ألقى بالأل للواقفين على جانب الطريق يطلبون خدمة التوصيل، وهم ليسوا كثيرين على أية حال.

كم مرة، فكرت في اعتزال العمل كسائق رغم قصر مدته، وكثيرًا ما روادني البحث عن عمل آخر، لكنني أعود لأواصل وأعد النفس أنني سأظل أعمل على سيطرة أبي حتى أجد فرصة عمل أخرى، والأيام تمضي، فلا أنا أجد الوقت للبحث عن فرصة عمل، ولا فرص العمل تأتي صدفة على عجلة قيادة سيارة أجرة أو في شوارع المدينة المشوهة باللافتات.

منذ تخرجت حاملاً ليسانس الآداب من قسم الاجتماع، كان ذلك حينها بديل الالتحاق بكلية الاعلام، حيث فارق المجموع نصف درجة حالت دون رغبتني، وظروف أسرتي لا تسمح لي باستكمال تعليمي بجامعة خاصة؛ ليكون لي ما أردت من تخصص.

في هكذا ظروف تكون الكلمات، التي تواسيك كلها جارحة، كل من يقدم النصائح محبط، الناصحون يكررون فشلهم، أبي يقول:

- وماذا سيحدث بعد تخرجك من كلية الإعلام؟
- أود ان أعمل إعلاميًا صحافيًا أتابع الحقائق، مذيعةً أنقل المعلومات، أرى الحقيقة وأتعامل معها.

يضحك أبي بمرارة، وكان يصمت قليلاً، ثم يسألني:

- هل لديك معارف يتوسطون لك؟ هل لديك خبرة بالعمل؟ أم ستنتظر صدفة أن يكتشفك أحدهم؟ يا ولدي المؤهلات تتساوى بعد التخرج، لو أتتك الصدفة السعيدة بعمل ترغبه لن يكون لمؤهلك دخل بها، لو وجدت من يتوسط لك، ستكون حيث تريد أتمتع تعليمك الجامعي كما قدر لك.

أتممت تعليمي كما قدر لي، ودخلت دوامة ما بعد التخرج، لا شيء يحدث قبل تحديد موقفي من التجنيد، لا تجنيد قبل أن يأتي دوري ودور أقراني في السن، ليس سوى الانتظار، الذي يومه بسنة، جاء دوري أخيراً، وبدأت الاستعداد لأداء الخدمة العسكرية .

أوراق تتبعها أوراق وبين الأوراق ترقد المعلومات والأسرار، بيان حالة جنائية(فيش جنائي) بيان بالحالة الجنائية العسكرية(فيش عسكري)، قيد عائلي، استثمار ستة، كلما أنهيت ورقة طُلبت مني ورقة أخرى، بكل ما يترتب عليها من روتين.

حتى كانت الورقة المفاجأة (بيان القيد العائلي) وهو بيان يتم استخراجها بعد تقصي عدد أفراد الأسرة الواحدة الذين يحملون اسم الأب، أنا الابن الأوسط لأبي، شقيقي الأصغر لا يزال في بداية المرحلة الجامعية، أما شقيقي الأكبر المسافر دائماً منذ تخرجه في الجامعة، فلا

أدري إن كان قد أدى خدمة عسكرية أو أعفي منها لأسباب عائلية فهو ابن وحيد لوالدته المنفصلة عن أبي قبل زواجه بأمي.

حينها سألني الموظف المختص أسئلة تخص أبي وأسرتي وإخوتي وإخواتي، قلت له نحن ثلاثة أشقاء لنفس الأب شقيقي الأكبر من أم أخرى، أخبرني أن البيانات أمامه تفيد بأننا أربعة، واحدة هي البنت التي تحمل اسم صابرين حسين، أخبرته أن لا أخوات لنا وعليه أن يبحث في كامل الاسم واللقب، أفاد أنها شقيقتي بالاسم واللقب وكرر:

- صابرين حسين المصري
- هل هي شقيقتي من نفس الأم؟
- لا.. هي لا تشترك في اسم الأم مع أي منكم
- هي من أم ثالثة؟!!
- نعم ألا تعلم؟

يومها حملت الورقة، وعدت انتظر أبي، ريثما يعود ليلاً، فهو الذي كان يعمل على سيارة الأجرة وقتها، لنعيش ثلاثتنا أنا وهو وأخي، أما أمي فقد توفيت منذ أعوام، كنا حينها قد كبرنا؛ ليعيش كل منا عالمه الخاص، ونتقاسم مراعاة شؤون البيت من تنظيف وغسل وكوي، وأحياناً تدبير وجبة الغداء، فقد قسم أبي العمل في كل ذلك بيننا أنا وأخي، وليس على أبي سوى تحمّل نفقات معيشتنا، بالعمل على سيارة الأجرة

التي اشتراها من بيع قطعة أرض صغيرة، ورثاها عن أمي، بعدها ترك الوظيفة الحكومية بمعاش مبكر؛ ليتفرغ للعمل على سيارته ويعولنا مادياً.

كنت أحمل السر الذي يحيرني، وأدور في البيت من دون أن أخبر أخي، مرت ليلة طويلة، عاد أبي في آخر الليل منهكاً من شقاء يوم بين الشوارع والناس، اختليت به في غرفة نومه.. قدّمت له الورقة في صمت، تناولها قرأها، ثم أعادها لي بلا تعليق، ونام تاركاً عشاءه بيننا.

تملكتني الحيرة مما فعله أبي، وأغضبني تجاهله للنقاش في الأمر بعدها، حملت سري معي، وبدأت رحلة أداء الخدمة العسكرية، أغيب شهوياً، وأعود، وأحاول نبش الموضوع، وأبي يتهرب من المواجهة.

هل حقاً لدي شقيقة لا أعرفها، بالأوراق الرسمية هي وقت تجنّدي في العشرين من عمرها، ترى هل تعلمت؟ هل تخرجت؟ هل تزوجت؟ هل أنجبت؟

كيف تعيش؟ ماذا تعمل؟ أين تعيش؟ مع من؟

ماذا لو قابلتها من دون أن أعرفها وفارق السن بيننا ليس كبيراً، ماذا لو التقيتها لقاء الأحياء؟

لم يكن ينفذني حينها من برائن تفكيري، سوى أنني أعيب أياماً كثيرة عن وجه المدينة، وحين أعود أكتفي بالتعامل مع المقربين، الذين أعرفهم من الأصدقاء أبناء وبنات العائلة المعروفين لي، كنت أتَهَرَّب من لقاء حبيبتي سيرين، كلما طلبت لقائي، لا أود أن أختبر مشاعري في لقائها، هي التي كنت أعدّ نفسي للزواج منها بعد إنهاء خدمتي العسكرية والالتحاق بعمل مناسب، كنا نرتب الأحلام معاً، منذ التقيتها في السنة النهائية بالجامعة، ومن وقت لقائي بها قررت العزوف عن العلاقات العابثة، وادخرت مشاعري لعلاقة جادة، ما الذي تغيّر في مشاعري؟ لا أدري، لماذا لم أعد شغوفاً بها؟ هل هكذا تصنع بنا الخدمة الإجبارية والبعاد القسري؟ هل للكدر دخل في زهدي عن حبيبتي؟ هل وهل وهل؟!!

تعود كلها إلى سري الذي أخفيه عن أخي وحبيبتي ورفاقي، ويخفيه عنا أبي، ولا يريد فك طلاسمه منذ كشفته الأوراق الرسمية لي، ولسوف تكشفه لأخي، حين يمر بالخطوات نفسها بعد تخرجه.

تركت أبي وشأنه، على أمل أن يبوح لي بسرّه في وقت ما، ولم يفعل، هو لا ينفى حقيقة الأمر ولا يؤكده.

وأنا أمضي أيامي، أسافر وأعود حتى مر عام ونصف أنهيت خلاله خدمتي العسكرية، وعدت إلى حياتي المدنية، التي أول درجاتها البحث عن عمل.

أدور منذ الصباح بأورقي بين الهيئات والشركات، أترك ملفاً هنا وملفًا هناك، وانتظر اتصالاً لا يحدث، أعاود البحث بين شركات التسويق، فلا أنجح في اجتياز اختباراتهما، أذهب إلى مراكز التعليم المتخصصة في الدروس الخصوصية المنتشرة بين طلاب وطالبات المدارس، يسألونني عن سنوات الخبرة، ومن أين لي بها وأنا من التخرج للتجنيد.

تزوجت سيرين ياساً من انتظاري، في اليوم الثاني لزواجها تسالت وحدثت أخي على هاتفه، ليمر تحت نافذتها لأمر هام، كانت تعلم أنني لن أرد على اتصالها بعد زواجها، ألقت لأخي قصاصة صغيرة مطوية طلبت أن يوصلها لي.

كتبت: "هذا هو اليوم الثاني لزواجي الذي فرضوه علي، بعد أن تركتني دون سبب واضح، واعلم - يا حازم - أنه لم يمسنني حتى الآن، ولن يكون ذلك أبداً".

كانت تلك رسالتها لي التي طويتها في جيبني في صمت، وظلت هي تتابع أخبارني من المحيطين بي من الرفاق والأقارب، وأنا أوصل البحث عن عمل من دون أن أهتم.

تركني أبي بين جولاتي في البحث عن عمل منشغلاً بذلك عن إعادة سؤاله، حتى إذا أنهكني البحث ذات ليلة، عاد ليجلس معي في وجود

أخي حسام، وهو يحدثني عن مدى تقبلي لوظيفة سائق، ولما كنت قد تعبت بحثاً، فأني أخبرته بقبولي.

حينها قدمني لعائلة ثرية ترغب في سائق يقوم بتوصيل السيدات والأطفال إلى مدارسهم وأنديتهم.

أتعامل مع أناس لا أعرفهم، أمضي وقتي بينهم في سير وانتظار، أوامر دائمة، وانتظارات دائمة.

ذهاب وعودة، سير ووقوف، أصعب مافي العمل هو التعامل مع السيدات والأطفال، يتركونك بالساعات أمام البيت في انتظار أن تنزل إحداهن فتأخذك إلى حيث مواقف الانتظار أمام مراكز التسوق، أو صالونات التجميل أو الصالات الرياضية، تدخل قاموسك مصطلحات لا تعنيك بشيء (مول - سنتر - جم - باركينج) كلها اختصارات أعجمية لأماكن تخصصهم وحدهم، سَأمْتُ العمل سائناً لعائلة، فتركته.

التحقت بعمل في مطعم ومقهى على النيل.. أقوم بخدمة الزبائن، في كلّ يوم أرى وجوهاً مختلفة، رجال وشباب، نساء وبنات، معظم من أراهم ثنائيات، والقلة منهم مجموعات أسرية أو صداقات شباب وبنات.

في البداية أحببت هذا العمل، بمرور الوقت أصبح العمل اعتيادياً، ولاحظت تكرار الوجوه أحياناً، حتى كان يوم دخل إلى المقهى شاب

وفتاة، جلسا على طاولة في الركن الخاص بخدمتي، كانت الفتاة مبتهجة تضحك بصوت مرتفع، أما الشاب فبدا لي بلا مشاعر، توجهت لهما أدون ما سيطلبان لتلبيته، استفزني فعل الفتاة وتملكني غضب رجولي، من يضمن لي ما يفعله هذا الشاب المستهتر بها؟

تفحصت وجهها، وتأملت ملامحها أبحث فيها عن ضالتي، أبحث عن لمحة شبه بيننا، عن وشائج الدم التي لا تسطرها الملامح بل تنقلها عبر سمة بسيطة، رمقني الشاب الذي يصحبها بنظرة أخلتني، تأقبت الطلبات ومضيت.

تمنيت لو أنني أعمل الآن على تقديم الطلبات؛ حتى يتسنى لي التقاط خيط الحديث.. عدت أمر بين الجالسين، وأبطئ المرور بالقرب منهما، كان الشاب يمسك يدها، ويقترب منها أكثر، همس لها.

- أخيراً اقتنعني يلا بينا بسرعة
- دلوقتي؟
- أيوه دلوقتي مش قادر استنى أكثر، المحامي موجود هيكتب العقد.
- وبعدين؟
- وبعدين...!

شعرت وقتها أن الشاب يستدرج مشاعر الفتاة إلى مراحل الرغبة،
ضغط يدها بين يديه، وقلب يدها، ووضع قبلة على كفها.

- يلا بينا

- هههههه..!

أطلق الشاب ضحكة ماجنة وطلب فاتورة الحساب، عدت له
بالفاتورة تناولها وبقيت واقفاً، كان يضع النقود في الحافظة حين انتبه
أنني لا أزال واقفاً، استنفره وقوفي، فرمى الحافظة على الطاولة ودفعني
بيده عن طريقه، أمسكت به، ودار شجار بيننا بالأيدي في لحظة
جنونية خاطفة.

أعرف أنني حركتني مشاعر مجهولة تصطدم بكل الثنائيات، التي
طرف فيها فتاة، وأراجع نفسي مرات أنني حتى الآن، أعرف أنها ليست
لي أخت، ولكن ماذا لو كنت مكانه، وأنا الذي أغرر بها، أنا لست
قديساً، ولست زاهداً في العلاقات الحميمة، وكم من المرات فعلتها في
علاقات الجامعة العابرة مع حبيبات أصبحن الآن زوجات وأمهات
لرجال آخرين لا أعرفهم!

انتهى الشجار بتدخل إدارة المكان ووعودهم بإنهاء خدماتي، وحين
غادر الشاب لم يجد فتاته.. كنت سعيداً بخلص الفتاة، رغم أنني لا
أعرف إن كانت ستتواصل معه مرة أخرى أم لا، انتهى عملي في تلك

الليلة، ولم أعد له مرة أخرى، مضيت أيامًا بين البحث عن عمل على شبكة الانترنت، والخروج للبحث بين شركات طلبت أوراقًا على أمل أن يرسلوا لي فيما بعد.

وكلما التقيت أبي شغل وقته بأشياء تبعده عن الحوار والمواجهة، لا أعرف كيف يجيد أبي التهرب من المواجهة في موضوع مصيريّ، كيف ينام مطمئنًا، من دون أن يحسب أن ألتقي تلك الشقيقة المجهولة بالنسبة لي صدفة، أما أنا فذلك الأمر كان كل ما يشغلني منذ صادفتني الحقيقة.

هاهو ذا-الآن - ينام في حجرته، وأنا عائد من عصف غرائزي وعقلي ينهشني، بعد تلك الليلة التي أمضيتها بين السيدة التي أثارت غرائزي وبين أحوال الناس الذين قابلتهم في يومي.

أحاول التفكير للوصول إلى الحقيقة، حتى الحقائق البسيطة المحيطة بي مستغلقة، هل سأفي بموعدي غدًا مع تلك السيدة أم سأتركها لمصيرها، ماذا لو تركتها؟ وأعفيت نفسي من عناء التفكير في حالتها؟

ولكنها حملتني حقيبتها وأسرارها وأمانة تبليغ أحدهم لو لم تعد، ماذا لو حدث لها مكروه؟ كيف سأعرف لو تخلّيت عنها، ولم أذهب؟ ربّما

أظل دائماً أفكر، فيما حدث لها، وأجد نفسي، بينما تكون هي على ما يرام وأنا لا أعرف.

هكذا أخذتني أفكارى، حتى حسمت أمري بالذهاب إليها لأعيدها، وأقنعت نفسي اللوامة، بأنني سأقوم بذلك من أجل ألا تتعرض لمكروه.

عند هذا الحد كنت قد أنهيت كوب الشاي، الذي أعددتَه بعد عشائي المختلط اللقم المغموس بالأفكار، فتحركت متكاسلاً إلى سريري، وألقيت جسدي المنهك، وغصت في أفكار أخرى بطلتها سيده تتردي رداء بنفسجياً، وتتسم بجسد مشبع وعرائز قاتلة، ويدي الشقية تلمس فخذاها بمكر انتهازي، واشتعال حواس الآن تعريها من كل شيء، وتغيبني في جسدها.

رضا

- أنا متسولة ياسيدي...متسولة، راجعوا ملفي القديم

هكذا أصيح ولا أحد يجيب سوى ذلك الشرطي غليظ القلب، الذي يأتي كلما علا صياحي، يركلنا بقدمه ويضرب بحزامه عشوائياً وسط زحام مكان الاحتجاز، منذ حملونا من الشارع في وسط المدينة، ونحن لم نر النوم أو الراحة، واقفين على أقدامنا حيث المكان لا يتسع لنا، لم أتوقف عن الصياح لكل شرطي يمر من أمامنا أعرفه بنفسي، أنا متسولة، افتحوا ملفي القديم، أنا متسولة، رفعت النقاب عن وجهي، نهزني الرجل ذو اللحية، الذي يقف بالقرب مني في تخشيبية احتجاز الرجال المجاورة، واقترب مني رجل آخر نحيل من دون لحية وهمس:

- أخوكي حماده..حماده سفروت

- عاوز إيه يا سي سفروت

- أنا كمان ماليش في الهري بتاعهم

- أمال كنت ماشي معاهم ليه يافالح؟

- زيادة عدد وأهو كمان فيه حتت طرية

انتبه له الرجل ذو اللحية؛ فنهزه، وأبعده بدفعة قوية من يده، أبعدت المجاورين جميعاً، فمالت جذوعهم، ولولا زحام الحجز لتكوموا أرضاً،

لكنهم تكاتفوا وعادوا واقفين، وحينما اعتدلوا لم أكن قد أعدت النقاب إلى وجهي، فعاد الرجل ذو اللحية ينهرني:

- احتشمي يا امرأة..!

هذا الرجل فظ يعاملني بغلظة، منذ تدافعنا في زحام ملاحقة الشرطة لنا، أنا لا أعرفه من قبل، ولا أعرف كل هؤلاء المحيطين بي، أنا مجرد بنت بئسة، ألقته الحاجة في طريقهم، كانوا يسيرون في الشارع بنظام محدد، السيدات والصبية والبنات في الأمام، والرجال خلفهم، يحملون لافتات، لم أقرأ ما كتب عليها، كنت أتعجل المرور من خلفهم؛ حتى أصل إلى السوق؛ لأشتري لوازم عملي الحر.. نعم أنا أعمل ولا أتسول، لكنهم صنفوني من قبل متسولة، أنا أحمل مؤهلاً متوسطاً، لم يؤهلني للعمل في أي مكان. ومنذ طفولتي، وهم يعدونني بالعمل حين أكبر، ولذا فقد اختصروا سنوات تعليمي في مؤهل متوسط، ذلك أن أمي متزوجة رجلاً غير أبي.

أنا لا أعرف لي أباً منذ وعيت على هذه الدنيا، لا أرى حولي سوى أمي أعالنتي، وهي تعمل في معمل تحاليل طبية، وتعود لي بالمأكل واللباس، نسكن شقة صغيرة في بيت قديم أراها بيتاً كبيراً كون أمي تنظفها جيداً، وتفرشها بأناقة فقيرة، وتنتظر يوماً أنتهي من تعليم

متوسط، لأجد عملاً يسمح لنا بتقاسم النفقات، ويخفف عنها عدد ساعات العمل.

كنت صغيرة حين جاء رجل ليس أبي؛ ليعيش بيننا في نفس الشقة، قالت أمي: إنه أبي العائد من ليبيا بعد طول سفر، أتذكر حينها أنني لم أفرح بعودته، بل تدمرت من مشاركته لنا في السكن والنوم والطعام، لم أشعر بأبوته يوماً، بل كنت كلما كبرت كبرته كراهيته في قلبي، أما أمي تلك المرأة البائسة، فلم يزد لها وجوده بيننا سوى تعباً وعبودية، تعمل صباحاً، وتعود عصرًا محملة بفتات تعدّه طعامًا؛ فيشاركنا فيه، ويأمر وينهي، وهي لا تملك سوى الطاعة، كنت كلما سألت أمي: "لماذا أدخلت رجلاً غريباً بيننا"، تقول: "لو عشنا بلا رجل سينهشنا رجال كثر، وتلوك ألسنة النساء سيرتنا ثم نطرد من الحي" كنت لا أفهم ما تعنيه حينها، لكنني حين وعيت قليلاً، باتت أذناي تلتقطان لمز النسوة في الأسواق وعلى أبواب البيوت وتحرشات الشباب والرجال المغلفة بعبارات معسولة.

كبرت، وبات وجودي في نفس البيت غير مريح، كنت قد أنهيت دراستي المتوسطة، وحصلت على دبلوم فني تجاري، تحدثت مع والدتي عن شأن الانتقال من العيش معها وزوجها للعيش مع ابنة خالتي، وهي سيدة صغيرة، يقولون أنها ترمّلت مبكراً من دون إنجاب، رغم أنني لم أر

لها زوجًا منذ وعيت، ولا أعرف عن موت زوجها، لكننا وجدناها تنتقل؛
لتسكن شقة قريبة بنفس الحي، وهي تعيش وحيدة.

وافقت والدتي بعد نقاش قصير، انتقلت للعيش مع ابنة خالتي،
وكان علي أن أعمل لأعيش، حاولت أن أجمع خبرة من تجارب صديقات
وزميلات سبقوني إلى سوق العمل، بائعات في محال، عاملات نظافة
في فنادق رخيصة، جليسات أطفال في دور حضانة بالأحياء الشعبية،
عاملات باليومية في ورش ومصانع صغيرة، كلهن يتعرضن للتحرش
والإهانات بأشكال شتى.. اخترت من بين هذه المهن أن أعمل لدى
سيدة، كنت أتخيل أنني بذلك أنجو من أشياء أخرى، حتى لو اضطررت
للعمل لوقت أطول، التحقت بمحل لبيع الملابس المستعملة التي تأتي
من الخارج في بالات مضغوطة، تفتح وتصنف وتعلق كل قسم في جزء
من المحل، صاحبة المكان سيدة، عرفتني بها ابنة خالتي، التي بت
أعيش معها، كانت تشتري منها بعض الملابس النسائية، وتعيد إليها
رونقها بالغسل والكي، فتظهر وكأنها ملابس جديدة يتعجب الناس من
كون ابنة خالتي الفقيرة تستطيع اقتناء ملابس ذات علامات تجارية
معروفة.

في البداية أعجبتني المهنة، ومنحتني خبرة التعرف على العلامات
التجارية للملابس وأضافت إلى خبرة التعامل مع السوق، لكنني كنت لا
أنجو من استغلال صاحبة المكان، حين تضيف إلى عملي خدمة أن

أقوم بالتنظيف أو الطبخ والغسل في بيتها، حتى كان ذلك اليوم الذي أرسلتني فيه ببعض الملابس النسائية المنتقاة، كي أسلمها لعميل لها في مكتبه بالحوامدية.

كان عليّ أن أستقل وسيلة نقل بالأجرة من الطريق العام؛ لأصل للمكان حاملة حقيبة تحوي الملابس، تحدّثت السيدة بالهاتف، وطلبت سيارة أجرة نقلتني إلى حيث تريد، ثم طلبت من السائق أن يعيدني في الوقت الذي تطلب منه ذلك.

أوصلني الشاب السائق إلى المكان، ونزلت فتركني في المكتب، ومضى، استقبلتني فتاة، وطلبت مني الانتظار حتى يفرغ الأستاذ من مشاغله، جلست أتابع المكان، وأخمن ماذا يكون عمل الأستاذ هذا؟

كنت أدور بعيني على حوائط المكان؛ لعلي ألتقط لافتة توضح نشاط هذا المكتب، وجدت بعض الإطارات الخشبية.. كل منها في داخله ورقة كما الشهادة مكتوبة باللغة الإنجليزية بخط رفيع، ثم تلك اللوحة التي فاجأنتني عند دخول المكان تمثل وردة حمراء تفتحت، وتتساقط أوراقها كما قطرات الدم، في المواجهة وخلف مكتب الفتاة المتواضع، كانت لوحة لسيدة جميلة يرفع الهواء ثوبها وتحنني لتثبته على ركبتيها بشكل مثير، يبدو أن ملامحي وشتت، بما يدور في رأسي من قلق وشك، بادررتني الفتاة الجالسة أمامي بنظرة وابتسامة:

- الأستاذ المحامي بس عنده شوية شغل
- الأستاذ محامي؟
- أبوه محامي
- يعني بيدافع عن حقوق الناس في المحاكم؟
- لا بيفض المنازعات قبل ما توصل للمحاكم.
- مميم مش فاهمة
- متفرغ لفض المشكلات والمنازعات هنا بين الأهالي.

حينها.. دخل رجل وامرأة وقفا أمامها تسلمت منهما ورقة وصورًا ودونت معلومات وعناوين وانصرفا، تلاهما أناس مختلفون، نساء فقط، فتيات، رجال بنفس الأسلوب، يتركون صورًا وعناوين، الصفة التي تجمعهم جميعًا أنهم بسطاء يتجملون ببعض الملابس المستهلكة وشيء من الخبث والحزن.

طال انتظاري للأستاذ حتى فتح الباب، ولم يخرج منه أحد، ثم سمحت لي الفتاة بالدخول فجأة، فأيقظتني من غفلي الشاردة في أحوال عملهم ومحاولاتي المجهدة في استكشاف عالمهم.

سرت بقلق وتوتر إلى الداخل أحمل حقيبة الملابس، كان الأستاذ يجلس في المواجهة، رجل لا يستطيع الإنسان أن يخمن عمره، ربما في الخمسين، ربما أكبر قليلاً أو أصغر، وجهه لامع، لا يشي بشيء،

وصلعة في مقدمة رأسه، وشعر طويل يغطي ثلثي الرأس وينسدل على الكتفين، حواجه كأنها محددة، وذقنه حليقة لامعة وشناب قصير وخفيف، قميصه محبوبك على جسده كاشفاً عن صدره .

أشار لي أن أجلس، وتركني وراح يقلب أوراقاً أمامه، ويرفع عينيه من حين لآخر يتفحص وجهي، حتى إذا تملمت، وهممت بالحديث سألني:

- اسمك إيه؟
-
- اسمك..؟
- اسمي...
- مش عايزة تقولي اسمك؟
- لا بس المدام طلبت مني أرجع بسرعة عشان الشغل
- طب ماهو ده شغل
- طيب شوف حضرتك هتاخذ إيه عشان أرجع.

فتح الحقيبة يقلب فيها ويخرج ملابس نسائية يفرداها أمامي ويفحصها ثم يعيدها، حتى انتهى من فحصها، وأعادها كما كانت وأغلق الحقيبة، وأنا أجلس مطرقة في انتظار أن يختار شيئاً أو يعيد لي الحقيبة وأمضي، فاجأني بسؤاله:

- أنت إيه رأيك؟
- في إيه حضرتك؟
- في الحاجات دي؟ عجبك؟
- حسب ذوق حضرتك، لو عجبك
- يعني لو حد اشتراهم لك؟
- أنا؟ حد مين؟ قصدي ليه؟
- طيب طيب خلاص خلاص أنا خدتهم.

عدت إلى السيدة صاحبة المحل بوجه بشوش أبلغتها أن الأستاذ أخذ كل ما أرسلته له، ابتسمت ابتسامة ماكرة، وأمرتني ببعض المهام من تنظيف وكي ملابس وتعليق وترتيب.

تكررت أسباب إرسالني إلى مكتب الأستاذ، مرة أحمل أوراقاً، ومرة مطروفاً فيه صور لفتيات يقلبها الأستاذ أمامي، ثم يختار بعضها، ويعيد إلي ما تبقى لأعيده لسيدة العمل.

في كل مرة أتخيل أنني اكتشفت جديداً في عمل الأستاذ، ثم يحدث ما يهدم كل تصوراتي، ولما تكررت زياراتي، لم تعد سيدة العمل ترسل معي سائناً، بل تركتني أتصرف في الذهاب والعودة بوسائل النقل المتاحة في الطريق.

آخر ليلة ذهبت فيها إلى مكتب الأستاذ، أحمل له مظروفًا، تفحص الصور فيه، ثم تركه، ونظر نحوي، وقال:

- وليه منكونيش أنت؟
- أنا إيه يا أستاذ؟
- أنت صاحبة النصيب في عريس عربي لقطة تعيشي وتتبسطي وتبقي صاحبة ملك.
- أنا...
- روحي فكري، وكلميني وأنا تحت أمرك.

خرجت حائرة وركبت سيارة أجرة (ميكروباص) كانت السيدة الجالسة بجواري واحدة، ممن رأيتهن بمكتب الأستاذ، حدثتني عن عمل الأستاذ الذي يسهل للوافدين من الدول العربية الزواج بفتيات صغيرات، مقابل أموال يتلقاها من الزوج وبعض من الهدايا من أهل الزوجة بعد إتمام الصفقة، حكّت لي عن ابنتها التي رُوِّجَها لرجل كان يحتاج زوجة متعة مؤقتة، طلقها بعد ذلك الزوج؛ ليأتي له الأستاذ بفتاة بكر أخرى.

عدت منهكة في المساء في انتظار عودة ابنة خالتي من عمل لا أعلم عنه شيئاً، اكي أعلمها بما عزمت عليه.

كنت قد قررت أن أعمل عملاً حرًا، ألهمني آياه تنقلي بمترو الأنفاق، من مكان سكني حتى وسط المدينة، حين رأيت البائعين والبائعات،

يفترشون الأرض في محطة مترو الأنفاق ببضائع مختلفة، ليبتها طلبت من بنت خالتي أن تساعدني بجمعية تتشارك فيها نسوة الحي، كل منهن تدفع مبلغًا شهريًا، وترتب الأدوار؛ لتسلم المبلغ كاملاً كل حسب أولوية الحاجة، ويكون دوري الأول في تسلم المبلغ وأسدده شهريًا.

حصل أن تسلمت مبلغ الجمعية على الرغم من صغره، اشترت بالجملة أغلفة الهاتف المحمول الرخيصة، وحملتها حتى محطة العتبة، فرشت ملاءة على الأرض ووضعت عليها بضاعتي، ساومني رجل يفرض سلطته على المكان أن يتقاضى مني مبلغًا شهريًا لقاء أن يسمح لي بمساحة أفترشها، أو: إن شئت الدفع بطريقة أخرى، جادلته، بحجة أنني أجلس في مكان عام، نعم هذا ما قلته:

- هنا.. ليس ملكك حتى تتقاضى عليه أجرًا، إنه ملك الحكومة.

حينها جمع أشياءي وألقى بها بعيدًا، فتناثرت وأسرعت ألملمها وجاءت نسوة ينصحنني بالتفاهم معه فقبلت، قلن لي: "أن ذلك مقابل الحماية من السرقات وهجوم بعض البلاطجة، وأيضًا حمايتك من الشرطة"، هو الذي ينبهنا قبل وصول شرطة المرافق، فنسرع بلملمة بضائعنا، ونهرب قبل أن يمسكوا بنا، ويصادرون بضائعنا، وافقت، وسمح لي بمساحة صغيرة.

كنت آتي من الحي الفقير على الجهة الأخرى للنيل أمام المعادي بجنوب الجزيرة، استقل قطار الأنفاق من محطة المنيب، حتى العتبة، أركب عربة السيدات، ربما جادت الظروف ببيع بضاعتي لسيدة يتم في عجالة، علمتني خبرة ارتياد عربة السيدات أن أنواع في بضاعي فأحمل بعض احتياجات النسوة من جوارب أو مناشف مطبخ وأشياء أخرى صغيرة، ليس ضمنها المناديل الورقية فقد علمتني خبرة البيع المتجول أيضًا أن تلك مهنة تسول.

أتبادل مع زميلات لي بعض سلعهن وأسوقها لهن لقاء هامش بسيط من الربح، في طريقي أرى بعض النسوة والرجال ينتحلون صفات مختلفة لجمع المال، حاملين أطفالاً مرضى أو مدعين المرض والحاجة.

المرض أبرز الأسباب التي يقدمونها لاستدرار العطف، ومن ثم العطاء، أنا تاجرة أبيع وأشتري وأتقاضى هامش ربح، نعم هامش ربح أعرف هذا المصطلح، منذ كنت أدرس في المدرسة التجارية.

لا أنكر أن البعض يلقون لي بقطع نقدية كمساعدات فقط، وفي الأعياد تأتينا منح من بعض أصحاب المروءات والمحسنين، وهذه يتقاسمها معنا غزال.

غزال هو اسم الشخص الذي يسيطر على المكان، سمعتهم ينادونه هكذا في أثناء إبرام الصلح معي والاتفاق على منحي مساحة أفتقرشها،

لا أخفي أنه أعجبني الاسم، لكنني لم أكن ألفظه أو أناديه به، كنت أكتفي بالحديث البسيط أو إلقاء تحية الصباح والمساء من دون ألقاب.

لا شيء جديد لمدة أشهر سوى أنني وسعت قليلاً من تجارتي حين نصحني التاجر بوضع سماعات للهاتف بجانب الأغلفة وفعلت.

ذات صباح حملت بضائعي وحقيبة أضع فيها عباوتي ونقابي فتلك هي ملابس العمل، أخرج من البيت من دونها، وبعد أن أصل إلى سلم المحطة أتوارى، وأرتدي العباة والنقاب، ذلك يضمن لي ألا يعرفني جيران أو أقارب يمرون بالمكان.. أما غزال فهو كالعرفيت يعرفنا من أعيننا حتى لو لم نتحدث، ويميز أصواتنا نحن النسوة المتجاورات في المكان بغرض البيع.

في ذلك الصباح لم يحضر غزال مبكراً، وفجأة بدأت حركة سريعة تدور في المكان جري ولملمة الأشياء، دفعني رجل بكفيه وأنا أفترش الأرض ببضائعي، بعثر أغلفة المحمول البلاستيكية المرنة، أقامني رجل آخر، ممسكاً بي، دفعوني وسط مجموعة من الرجال والصبية والنساء، أخذوا بضائعنا واقتادونا من تحت النفق إلى الخارج، حُمِلنا في صندوق سيارة الشرطة (البوكس) يجلس على حافته الخارجية شرطيان، وقتها علمت أننا في قبضة الشرطة، في قسم شرطة الأزبكية، ألقوا بنا في الحجز المؤقت (التخشبية) اتصلت بابنة خالتي أخبرها، فقامت بإخبار

أمي، جاء زوج أمي وتحدث مع بعض من رجال الشرطة وأفراد الأمن، وظل يقفز كالضفدع هنا وهناك، وأنا أراه من خلف التخشبية، ولا أدري كيف يتعامل مع رجال الشرطة بتلك المرونة، ويمزحون ويطلقون النكات القبيحة، سألتني المرأة التي تجاورني:

- هو المخبر ده قريبك؟
- نعم؟!!
- إيه يابيت حتستعبطي علينا، تلاقيني أنتي اللي مبلغة علينا ومتنكرة وعاملة نفسك بياعة
- فيه إيه بس أنا مش فاهمة حاجة
- المخبر ده تعرفيه منين؟
- زوج أمي
- خلاص ملكيش مكان تاني بينا

أنهى زوج أمي الإجراءات لخروجي، وقتها كتب عني في محضر الشرطة تسول، اجتهد زوج أمي، حتى لا تكون التهمة بائعة من دون ترخيص، قال هذا حتى يعفيني من غرامة ألف جنيه، لممارسة تجارة من دون ترخيص، يومها همس لي أمين شرطة إن كنت في حاجة لمساعدته، حتى يستخرج لي ترخيص ممارسة مهنة بائعة متجولة، غمز بعينه لي معجبًا، لم أشأ صده، ربما احتجت إليه فعلاً، واستخدمت حكمة جارة لنا كانت لا تتعثر في انجاز ما تريد، وكنا ننتقدها سرًا،

كانت تقول حين تسأل عن خدمة أداها لها رجل: "كيف تم ذلك دون مقابل؟"، تضحك جارتنا وتقول:

- شوق ولا تدوق

وتمر المزحة بيننا، وتخترن كخبرة حياة، لم أكن من قبل أعرف أنه حتى تلك العبارات، التي اعتبرتها مزاحًا عابرًا هي خبرة الشارع والحياة، وأنني سأعمل بها يومًا ما.

من يومها لم يصبح لي مكان بمحطة المترو، ولم يعد بالمحطات تحت الأنفاق باعة، وعلمت من إحدى البنات أن غزال غاب في السجن إثر مشاجرة، وأن الحكومة منعت اقتراش محطات المترو بالبضائع، وتعقبت الباعة والبائعات، وفرضت غرامات وعقوبات حتى لا يعودون مرة أخرى، وعليه كان لابد أن أتدبر أمري وأجد لنفسي مصدر رزق.

أصبح لدي رخصة بائعة متجولة، وحملت معها حقيبة تحوي بضائعي، بلا مكان محدد، أبيع في عجالة داخل عربات المترو، وأبيع وأنا أسير على الأرصفة، وأعرض بضائعي على السائرين أحيانًا، وعلى البنات والسيدات العاملات في محال وسط البلد أحيانًا، وفي الحي تكلفني بعض النسوة بجلب احتياجاتهن من أسواق المدينة.

هكذا دفعني الحظ للسير في الشوارع المحفوفة بالمشكلات في وسط
المدينة، وتصادف مرور هؤلاء المتظاهرين، الذين لا أعرفهم، وربما
تعلق بي تهمة لم أرتكبها، لذا أنا أصبح كي أثبت تهمة التسول، فأنا
لا أعرف تهم هؤلاء وإلى أي مصير متجهون!

عزيزة

أجلس على حافة سرير ملوكي، ظهري للداخل ووجهي للباب الذي لا أعرف كيف يفتح.

عندما التفت فاجأني من خلفي منظر الرجل النائم في فراشه الناعم وملابسه الفاخرة، بينما على حافة الفراش تجلس سيدة تستند إلى ذراعها وقد التفت جذعها للداخل، شعرها الأسود ينسدل على كتفيها، وقميص بنفسجي يكشف عن الكتفين ويغطي حتى الفخذين، ونظرة بائسة تطل من عينيها، تأملت المشهد الذي ظننته لوحة، فوجدتني أنا وهذا الرجل حيث أقضي على حافة فراشه، ما بقي لي من الليل، وتلك مرآة من خلفي تعكس حركتي وسكوني.

الباب- الذي دخلت منه - موصد تمامًا، فقد فتحه الرجل النائم بجهاز تحكم ثم أغلقه، دفعني الفضول؛ لمحاولة فتح الباب كما فعل هو فلم يفتح، أنا لا احتاج شيئاً من خارج هذه القاعة، فكلّ ما أحتاجه متاح حولي كما أفهمني هو.

قال لي:

- هنا تجدين كل ما تريدين، سأترك باب الحمام مفتوحًا، المبرد فيه ما تحتاجينه من طعام وشراب، خزانة ملابس ممتلئة إن شئت بدلت كل ساعة.

- هل أنا محبوسة هنا؟ سألته بابتسامة ود

- لا أنت هنا صاحبة مكان، خذي راحتك.

من وقت وصولي وجدته قد أعد مائدة مليئة بالطعام الفاخر، وعطّر البيت، وارتدى ثيابًا فاخرة ينتظر وصولي، عاملني كما تعامل سيدة راقية، قِيلَ يدي عند السلام، وأخذني ودار بي، كانت الموسيقى تملأ المكان كما العطر، وأنا لا أجيد الرقص الأفرنجي، لكنني كنت مأخوذة بالحالة، أدور وأدور معه.

جئت أحمل معي شبقًا لهذا الذي جاورته في سيارة الأجرة، التي حملتني إلى هنا، أشتاق لدقة طبل تهزني بعنف، فأخرج ما بي، أود أن أرقص بمفردي رقصة تزلزل كياني، أهز صدري، أردافي، أتلوى، وأنثني، أحتضن طيفًا، ثم أحرره، أستثير أحداً، كي يعتصرني بين أحضانه.. وأدوب.

وهذا الرجل يلفني برقة وهدوء، يتشمّم شعري، ويمرّ يده على كتفي، ويقبل جبيني ورأسي.. يدور بي، يطلقني ثم يعيدني.

عاد بي إلى طاولة الطعام، أجلسني بجانبه، أطعمني بيده، وسقاني مشروبًا لم أتذوقه من قبل، جلسنا نستمع لموسيقى ناعمة.

ثم تركنا الموسيقى تنساب في ذلك المكان، وسرنا معًا، وهو يلف ذراعه حول وسطي حتى كاد جسدي أن يذوب، حينها كنا ندخل قاعة كبيرة بها أرفف ومكتبة على الجانبين، وعلى الحائط المواجه شاشة كبيرة، قال:

- تعالي نشاهد فيلمًا، ماذا تحيين؟ هل تفضلين أفلام الحرب أم أفلام الرعب أم أفلام (الأكشن) قصدي أفلام الحركة؟

كنت أفند ما عرضه من قائمة الاختيارات أحاول أن أفهم، أنا لا أحب الحروب والدماء والقلق والظلم، وأما أفلام الرعب فأنا أكره الرعب، ولا أحب أن يفاجئني أحد بفعل أو قول مخيف، لكن ماذا عن أفلام الحركة؟ سألتته:

- أفلام حركة يعني إيه؟ يبدو أنه قرأ مايدور في عقلي من تفسير فابتسم وأوضح:

- فيلم حركة يعني (أكشن) زي مثلا بروسلي وزبي كمان في الأفلام العربي أحمد السقا

- طيب خلاص خلينا رومانسي أحسن.

أمسك جهاز التشغيل، وشغل الفيلم، كان فيلمًا أجنبيًا من دون ترجمة، بدأ يحكي لي، وأنا أتابع الصور: فيلم طويل، قصة حب، لا تخلو من ألم، كيف يعيش محب بعد فناء محبوبه، ويستمتع بذكريات جمعتهما، يجسدها بخياله، ليستعيدها وقتما شاء، بكيت، فاعتذر عما سببه لي من حزن.

انتهى الفيلم، ففتح الحائط بجهاز تحكم وظهرت غرفة النوم فسار إليها، وأغلق خلفه الحائط. شعرت بخوف هذه أول مرة أرى فيها مثل تلك العجائب، سمعت طبعًا من قبل من تلك السيدة التي تبيع الملابس المستعملة عن مثل تلك الأشياء، حين عاشتها في المملكة السعودية حينما تزوجت من رجل سعودي لفترة مؤقتة، وعادت فأقامت مشروعها التجاري من حصاد تجربتها، أما أنا فلم أجن من تجربة زواجي سوى القليل، ولا أزال أكافح حتى أعيش.. بقيت مكاني انتظر ماذا بعد تحرك الحائط وعودته كما كان، مرت دقائق تحركت خلالها إلى حيث كنت ثم عدت، ففتح الحائط، كان الرجل ممددًا على السرير، بيده كأس، شرب رشفة ثم أشار لي بالقدم.

- اتفضلي
- هاه... طب أصل أنا...
- تعالي.. تعالي... الدولاب ده فيه كل اللي تحتاجيه.

تحركت على مهل إلى القاعة، التي ينام فيها، وقفت أمام خزانة ملابس كبيرة حائرة في اختيار ثوب يبرز مفاتيحي، أشار لي حيث كان هذا القميص الذي أرتديه معلقاً، تعجبت أنه كان مناسباً لي، أما هو فقد طلب مني أن أجلس، وأحكي له.

فماذا أحكي؟ هل أحكي له حكايات الناس الذين ألتقي بهم، كل من التقيتهم لهم حكايات، هو أيضاً، لا بد أن وراءه حكاية ما، إن لم يكن كتوماً سأعرفها وأحملها معي، ولكن ربما لا تصلح حكايا غيره كي أحكيها له في تلك اللحظة، هل أحكي حكايات النسوة في بلدتنا؟ لعنني بذلك أفشي أسراراً، وأكشف له خبايا عالمانا.

هل يعرف شيئاً عن معيشتنا؟ هذا الذي يحرك كل شيء بلمسة من أصبعه؟ ولو حكيت هل ستكون الحكايات مسلية؟

هذا رجل رومانسي، وقد جاء بي ليقضي معي وقتاً ممتعاً، فأين هي المتعة في حكايات بلدتنا، وما هي التسلية في حكايات هؤلاء الناس من الرجال والنسوة!؟

لكن ماذا لو حكيت عني أنا؟ ربما هذا ما يريده، وأنا أيضاً -
أحتاج أن أتحدث وأخرج من قلبي أحاديث الأسرار المتعبة.

- كل ده تفكير عشان تحكي

- بافكر احكي لك ايه
- أحكي اللي يجي على بالك
- اختاروا لي اسم عزيزة على اسم جدتي لأمي، بس أنا عمري ما حبيت الاسم ده، عشان هما لما بيختاروا أسامينا، بتبقى عكس نصيينا من الدنيا.

كنا أربع بنات، و كنت آخر العنقود أصغر اخواتي، ولم يكن لنا أخ صبي..عشنا في بيت صغير جدًا، مكون من غرفة واحدة وحمام صغير، وممر نضع فيه موقد لطهي الطعام، أبي كان يعمل في القرى القريبة باليومية، أحيانًا كفلاح أجير، وأحيانًا كعامل بناء، أمي تفترش الرصيف القريب؛ لتبيع بعض المأكولات، وأحيانًا تخرج مع النسوة في عربة نصف نقل لتبيع الخضروات أو الليمون والجبن القريش أوالجبن القديمة في سوق المدينة القريبة.

وعيت على انتظارات أبي وأمي لنا؛ حتى نكبر؛ ففتبدل معيشتهم، أما الجيران، فكانوا يحسدوننا أن جننا بنات، كنت صغيرة لا أدرك لماذا! حتى صارت أختي الكبرى عروسًا لم تكمل تعليمها، تركت التعليم، وهي في الصف الثاني من المرحلة الاعدادية، هكذا البنات في بلدتنا أغلبهن لا يكملن التعليم، حين تأتي فرصة الزواج.

ذات يوم، جاءت سيدة لا نعرفها لزيارتنا، تحدثت مع أمي، وأخذت صورة أختي الكبرى سامية، وغابت أيامًا، ثم عادت تصطبج رجلًا غريبًا، يختلف عنا في ملبسه وطريقة حديثه. تزوجت أختي الكبرى من هذا الرجل الغريب، ورحلت معه إلى بلده البعيد.

كلما سألت عنها، قالوا لي هي في الحجاز عند بلد رسول الله، مر وقت طويل بحساباتي الصغيرة حينها، وبحساباتهم زمن قصير.. حتى عادت أختي في زيارة لنا مع زوجها، كانت ترتدي زيًا مختلفًا عنا لونه أسود، وتخفي وجهها لا يظهر منه سوى عينيها، عندما رأيتها لأول مرة فزعت منها، ولم أتعرف عليها، حتى دخلت البيت، ورفعت الغطاء الأسود، واحتضنتني.

بيتنا في أثناء غيابها تبدل، فقد انتقلنا لبيت جديد متسع قليلًا، واشترى أبي بعض الأثاث المستعمل، قبل مجئ أختي قال: "حتى نستتر البيت أمام الأعراب"، جاءت أختي ببعض الهدايا والملابس لنا، تركها زوجها تقيم معنا ثلاثة أشهر، وذهب هو ليقوم في مكان آخر، في أثناء وجودها كنت أسترق السمع إلى أحاديثها عن زوجها مع أمي، لم أكن حينها أفهم شكواها، كانت أمي تبسط لها الأمر.

- الراجل ياخذ مراته من مطرح ما هو عايز
- بس يا مه أنا تعبانة ومش بيعود عليا من كده غير التعب

- يابت اصبري بكره تتعودي وتبقي عنده أحسن واحدة، أحسن من الحريم اللي بيعاشرهم كلهم
- أحسن واحدة إيه يامه، ده سايبني هنا عشان بيقضي جواز متعة مع واحدة تانية في شقة مفروشة
- طب ماهو هيسيبها وهو مسافر ويرجعك أنتي معاه يا خايبة

لم أكن أفهم شكوى أختي ولا منطق أمي في تبرير موقف زوج أختي، ولا أفهم من مشكلتها حينها سوى أنّ زوجها جاء بها هنا، ليتركها لدينا بعض الوقت، ويعيش مع سيدة أخرى للمتعة، وإن كنت لا أعرف ماهي المتعة في عرف زوج أختي! ولماذا لا يجد هذه المتعة في الحياة مع أختي!

أختي الثانية فائزة كانت تفهم وتعرف، وحين جاء دورها، هدت أن تترك البيت، وتهرب حتى لو زوجها رغباً عنها، كانت تحب ابن عم لنا يعيش في قرية من قرى الجيزة، جلس أبي أمامي ليحدثها، كنت قد كبرت عامين كاملين، وقد دخلت حياتنا خلال هذين العامين وسائط جديدة تجعلنا أوفر حظاً في المعرفة وأسرع نضوجاً، أبي كان يحدث أختي الثانية بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى.

مرة يغريها بالحياة المرفهة التي سوف تجد فيها بيتاً خاصاً واسعاً لها، وبالبيت الذي سوف تبنيه في بلدتنا أسوة بأختها الكبرى التي ترسل

الأموال؛ ليشترتوا لها أرضًا وبينون عليها بيتًا بالطوب الأحمر، ويجهبونه لها، ومرة يحاول أن يدخل الخوف إليها من زيجة فقيرة من ابن عمها الفقير، حيث ستعيش حياة الفقر والحاجة، وتسكن غرفة في بيت عمها مع عائلته، وأمام عناد أختي وصلابة موقفها، كان أن اختار أبي حلًا وسطًا.

- ابن عمك مش هيطير، أهو يستنى تتجوزي راجل خليجي، لو عجبك الحال معاه كلمي، ولو زهقتي أو هو اكتفى هتكوني لك حقوق تاخديها، وبعدين تبني البيت، وتحتة دكان، وتكوني نفسك، وتتجوزي ابنك عمك ومالوا.

فايزة أختي أبلغت ابن عمي بما يدبر، أرسلت له عن طريق سيدة دلالة تتجول في القرى تبيع ملابس وأشياء نسوية، وتتقاضى الثمن بقسط شهري، تأتي إلى قرينتا بين الحين والحين؛ لتجمع أفساطها

حملتها فايزة الرسالة لابن عمي، الذي أصبح لا يمكث في مكان محدد كونه يعمل أجنبيًا، ينتقل للعمل من قرية لقرية ومن مدينة لأخرى، يبدو أن الفقر والحياة القاسية قد علمته القسوة، فلم يرسل لها ردًا يخبرها فيه ماذا تفعل.

عاشت فايزة تحت ضغط إلحاح أسرتنا الفقيرة في تزويجها بدلًا من ضياع فرص الزواج في انتظار من لا يملك، طال انتظارها، ولم يأت

رد، والعروض تتوالى كل صيف من هؤلاء الذين يأتون عن طريق المكاتب والنسوة الدلالات.

بلغت أختي سن الثامنة عشر، وأنهت دراسة متوسطة، هدا سوق عروض الزواج كونها أكبر من البنات المتوفرات بالقرية لعروض الزواج، وخرجت أختي لسوق العمل، اختارها الأستاذ؛ لتعمل في مكتبه سكرتيرة، الأستاذ هو صاحب مكتب لحل المشاكل هكذا فهمت وقتها، لديه مكتب كبير في المدينة القريبة، ومكتب ملحق قريب من قريتنا، اختار أختي للعمل لديه، ولم يعترض أبي، كبرت أنا وصرت في المرحلة الإعدادية، حين جاءت فائزة أختي تصطحب عريساً خليجياً، لأختي الثالثة هناك، قالت: إنه عميل في مكتبهم يرغب في أن تجد له عروساً مناسبة، ففكرت أن تهديه لأختها هناك، لم تظهر هناك اعتراضاً، فتركت المدرسة الثانوية المتوسطة من الصف الأول، وتزوجت رجلاً من دولة قطر، لم أكن أعرف عن تلك البلاد سوى الاسم، حينما يتردد في زيجات بنات بعض الأقارب والجيران، هذه تزوجت سعودي، وتلك زوجها كويتي، وأخرى جاءها زوج من قطر، اشتهرت قرانا بزواج بناتهن من العرب، وانتفع من وراء ذلك أصحاب مكاتب، فتحت لهذا الغرض ونسوة دلالات، وسميت منطقتنا باسم العرب.

رحلت هناك مع زوجها القطري، وغابت طويلاً كنا نسمع عنها فقط من القادمين حين ترسل لنا بعض الأموال و رسائل أو تسجيل صوتي

لها ولصياح أطفالها، أنجبت في خلال ثلاثة أعوام ثلاثة أطفال، قالت أنها التحقت بمدرسة ليلية لتكمل تعليمها.

وجاء دوري ولا تزال فائزة تعمل بمكتب الأستاذ إلى جانب إنجاز بعض الصفقات لصالحها، كانت تتكسب مالا أكثر مما يأتي من أي من الأختين، اللتين سافرتا كل منهما مع زوج من بلد مختلف.

لم تعد الأسرة تطالب فائزة باختيار زوج عربي ينفق بسخاء، كانت هي قد اعتادت أن تشارك في نفقات البيت؛ لتضمن سكوتهم، ثم اختارت أن تنتقل وحدها إلى مدينة الجيزة، وتسكن شقة تدفع إيجارها، مما يعود عليها من الوساطات والإكراميات، كما يسمونها.

بدأت عروض الزواج من عرب تأتي وأنا في الصف الأول من التعليم المتوسط، وقد تكوّنت لدي ذاكرة سيئة عن زواج الأعراب، من حكايات أختي سامية مع زوجها وحكايات بنات أخريات، فهمت ماذا تعني أختي من شكواها، وحين فهمت كنت كلما تذكرت أسرع إلى الحمام لأستفرغ ما في معدتي من زاد أو ماء.

- وإيه أخبار الحب عندكم؟

فاجأني صوت الرجل الذي ظننته نام من الملل ورداءة ما أحكي،
وهاهو ذا يسألني عن الحب، ماذا يعرف هؤلاء الناس عن الحب؟
وماذا نعرف نحن؟

الحب لديهم سهل ومتاح ككل الأشياء المتاحة حولي الآن، والحب
لدينا بعيد المنال بمقدار بعد الأموال وأكثر.

- كنت أظنك نائمًا وأنا أحكي، وما أفعله أنا ليس سوى استكمال
بوحى.

- كلميني عن الحب عندكم

- الحب يا سيدي حاجة زي الفاكهة واللحمة الغالية قدام ناس
بيلاقوا رغيف العيش متغمس بالشقا، تلاقىهم بياكلوا اللحمة
عالريحة لو مروا قدام دكان مشويات.

- إزاي يعني يحبوا ع الريحة!

- يحبوا الحب للحب، يحبوا يشوفوا الحب وينصرونه لو حتى في
الأفلام..

- جرتي الحب؟

- ليس إنسانًا من لم يمر به الحب، وأنا لا أدعي أنني مررت
بتجارب حب، لكنني في شوق للوقوع في الحب، أود لو أحببت،
وتحايبت.

- ألم تتزوجي من قبل؟ ألم تحبي الرجل الذي اخترته زوجًا؟

- دي حكاية تانية خالص، حكاية إني حببت الرجل اللي اتجوزته قبل ولا بعد، قصة طويلة
- كملّي أنا سامع
- طب يعني...
- كل حاجة تيجي في وقتها، وأنا ألاقي لازم حاجة فيكي تحركني وبعدها تشوفي هاعمل إيه
- بس احنا بنحكي بس كلام
- هو الكلام ده أكثر حاجة فيها إغراء، ممكن طريقة نطقك لكلمة، ممكن حركة، همسة، كملّي...

حسين المصري

الليلة مش عابزة تعدي، وأنا قاعد بأقلب في الصور، إيه اللي خلاني فتحت باب الذكريات، ما أنا كل ليلة باعمل نفسي نايم عشان أهرب من مواجهة ابني، ألاقي نفسي نمت بجد، سنين اتعودت على كده، في القعدة ساكت أو قايم قاعد أو خارج، وبالليل أمثل النوم فأنام.

ابني يحتاج أن أصارحه كيف أصارحه، وأنا نفسي أنتظر معجزة تتكشف لي.. بماذا أصارحه؟ بذلك الماضي الذي عشناه، ثم انفلت من بين أصابعنا، بالأحداث التي غافلتنا، وخطت سطورها.

هو يبحث عن الحقيقة في ما أبرزته له الأوراق الرسمية، وأنا أبحث عن الحقيقة الضائعة مني ضمن ما ضاع ومن ضاعوا، آه يا هذه الصور يا من فيها أفيقوا من غفلة، أو عودوا من موت، وتعالوا نعيد العمر من جديد، ونحرص ألا تسرق أحلامنا.

نحن نتراص على ورق مصقول، أنا في المنتصف أقف مكتوف اليدين، كمن يحمل سرًا في قفصه الصدري يضمه بيديه، والرفاق من حولي.. من أين نبدأ يا رفاق؟ من يوم خرجنا نشق ليل الأحلام، لنأتي بفجر جديد، وما قبل ذلك عبث الصبية الذين يتدلّون على أكتاف آباء

مخضرمين، عاشوا الوقت الضائع، لم تأت ثورة يوليو لتقسمهم، فئتان كانوا، من قبل ومن بعد، حفظ كلُّ منهم مكانه على خارطة المجتمع.

لم يكنْ مقدَّرًا لأبائنا الكادحين، أن يتزوج أحدهم من بنات الفئة الأخرى، لم يحدث تزواج إلا فيما ندر، ولم يكن يأتي من أبناء الفئة الأخرى من يحمل أميرة من بناتنا على حصانه الأبيض، تلك هي حالات الاستثناء والندرة..حتى أبي لم يكن من تلك الندرة، حين التقى بأمي، فقير متعلم تزوج سيدة من بقايا الأتراك الذين مصرتهم الحياة وتجاوزهم الزمن.

هكذا ولدنا لأباء وطنيين، فتعلمنا على أيديهم حب الوطن، هم عاشوا الثورة شبابًا، ونحن كنا للثورة أبناء شرعيين، تشبّعنا بحلم التحرير العربي والقومية، الذي حملنا أياه الزعيم الأب.

المذيع كان وسيلتنا، يصدح في بعض البيوت والمقاهي، ونستمع إليه من الشرفات،..قصص بطولات وأخبار وأغان، تحفظ التاريخ وتلقّنه، نعرف أعداء الوطن المحتلين السابقين، نعرف شوكة الاحتلال في قلب الوطن (فلسطين) غزة، سيناء المحتلة، قرارات الأمم المتحدة، انكسارات ما بعد النكسة، الأرض، العرض، الكرامة، كلمات كنا نردها نكتبها في موضوعات الإنشاء.

ما معنى الاستنزاف؟ أن نرهق العدو كراً وفزاً، ماذا تعني الحرب الباردة؟ لا نعرف سوى أن تلك المصطلحات تشعل دماغنا بالنخوة، وتشخذ فينا حب الوطن والتضحية في سبيله.

يغيب بعض الآباء ويعودون، يحكون للرفاق ونحن نسمع، من حرب لحرب، بين الانتصارات والانكسارات، ونحن صبية نركض، نلعب الكرة الشراب في شوارعنا، نتشكل فرقاً من أسماء الشوارع المتجاورة، أو نلعب حرباً بين العسكر والحرامية، نتعادى تمثيلاً ثم نعود أصحاب، نعيش الحب خلسة.

نقذفنا البيوت كل صباح للشوارع، وتعود تلملمنا قبيل الغروب، المساءات سهرات أسرية ولهو في محيط العائلة.

وأنا وتلك الصغيرة نقتنص اللحظات، نتجاذب النظرات، نلتقي عند الدرج.. نتلامس خلسة، نفرّ من قبة خاطفة، فنلهب مشاعري.

- سننتزوج
- نتزوج؟ كيف؟
- نعيش معاً في بيت واحد كأبي وأمي
- أبي يقول أنه ندرني لابن عمي
- أخوك راضي صاحبي، سيقف معنا

الأيام مثل درجات السلم، الذي يفصلني عن لقاء الأحبة، نهبطه بسرعة نبض الشوق، نصعده بكدر البعد، من الذي وشى بقبلاتنا المسروقة كل صباح تحت منعطف الدرج؟ فسلبنا لحظات السعادة الخاطفة.

كبرت الصغيرة، صارت تنزل كل صباح إلى المدرسة بصحبة راضي، وأنا أسير بمفردي حتى ينتهي راضي من توصيلها إلى مدرستها، ثم ينضم إليّ، فنذهب معًا من دون إشارة إلى ما حدث.

أقامت الأيام سورًا بيننا، يعلو كلما خط التقويم رقمًا أكبر، لم تكن مفاجأة حين دعاني راضي لعرس أخته، ولم أكن بلا مشاعر حين ذهبت، أنا انسان كأني مواطن في بلدي يتخرج، ليجد أمامه الأعباء تنتظره، لا يملك أن يفى بوعد، فالمقدرات حاكمة وحاسمة.

غبنا فترة التجنيد وعبرنا الحواجز النفسية، وعدنا كما كنا ننتظر مساعدة الآباء، وهم يجودون حسبما قدر لهم.

في كل يوم أقف أمام مرآتي أنظر وجهي الذي تغضن، أبحث عن ذلك الفتى الذي كنته، فلا أجد سوى هذا الرجل الهرم الذي ثقلت على أكتافه الحمل، ولا يزال القادم يحمل المزيد.

الصور تجسد لي الماضي وأحداثه، تحملني عبر الزمن وتعيد عجلة العمر للوراء، فأعود بينهم من جديد، لا عمر لي سوى هذا العمر، هذه صور الأصحاب أيام المدرسة، الأبيض والأسود ألوان مخلصنة لوقتها ولمشاعر أصحابها.

حفظتنا الأوراق المصقولة، وفرقتنا الحياة في دروبها، لا ندري أهو من حسن الحظ أم من سوء الطالع أن كنا على أبواب التجنيد قبيل العبور.

هذه صورة لنا ورفاق الحرب على دبابة كانت من غنائم الحرب، ولا تزال هذه الدبابة في المتحف الحربي، يأتيها تلاميذ المدارس ورحلات الأسر يلتقطون عليها الصور، أما نحن والتضحيات والدماء والحرب، فقد تبعثرنا بين المعاهدات والمؤتمرات والوسائط والدسائس.

بقي راضي عن يميني، أقرب الأصدقاء لي، صديق العمر الغض، طفولة الشوارع الحنونة، ودفء اللعب في أيام البرد، ومشاكسات وعناد، وفرح، نبتة الرفقة تتجذر، تسري في الدم، تغدو وشائج قرب، يؤكد لها القدر، نترافق وقت الشدائد، يطول بنا الوقت بعيداً عن الأهل مجندين في انتظار قرار يحركنا أو وقت يطلقنا، فنخرج في اجازة نمرح ثم نعود.

خضنا الحرب، وأصيب بعضنا ومات منا رفاق وصحبة، لكننا فرحنا بالنصر وغنينا، وسرنا في الشوارع التي شهدت طفولتنا بفخر،

نحن الجيل الذي عبر، وحقق الحلم.. نحمل مزيجًا من حكايا وأوجاع وأفراح وأحزان، في انتظار قادمين بعدنا نعلمهم، كما علمنا من سبقنا.

أنهينا التجديد، بمشاعر مختلطة ومتناقضة، وانتقلنا ننتظر فرص العمل بوظائف حكومية، تأكل النهارات أحلامنا، ويأكلنا الليل حين نترهل على المقاهي، تفقد بطولاتنا بريقها بالتقادم، ويغيب مستمعها في زحام الحياة، نتفرق بحثًا عن دور بطولة جديد، ثم نعود نلتقي على الحكايا، نتزاور كالأهل نلتمس الحميمية والمحبة، كالعطشى للحب نبحث عن الحب وكنوع من محاولات إثبات الفحولة نغوص في ممارسات الجنس.

صار لكلّ منا أسرة هو ربها، و بقيت منا صورة توريقي، تذكّرني دومًا، بذلك اليوم الفارق، يوم ضاقت بنا الحياة، وتساقطنا على أبواب المطارات، لكلّ منا قصة سفر، وتلتقي قصصنا عند نقطة واحدة نحن أبناء الجيل الواحد.

جمعتنا الحروب وفرقنا السلم الذي عقدوا له الاتفاقات والمؤتمرات، وعقدنا في زمنه عقود العمل والزواج والإنجاب، كما خرج وطننا لسوق الانفتاح، الذي أعاد تشكيل الحياة وغير أنماط المعيشة، فتجاوز الزمن بطولاتنا، التي غدت مجرد حكايات نجترها، حتى زاحمنا حكاؤون جدد، يروون عن بلاد مختلفة وشعوب مختلفة ويأتون بالجديد من الأدوات

والسلع، ويدخنون سجائر غالية ومستوردة، كنا نجاهد أنفسنا كي لا تجرفنا المغريات، ونعود لبيوتنا مساءً، لنجد حكايا أخرى على ألسنة الزوجات وفي عيون الأطفال.

"وماذا لو سافرت سنة إلى تلك البلاد التي يسافرون إليها ويعودون محملين بسلع وهدايا؟" كان الواحد منا يسائل نفسه، ويراوغ صلابته في البقاء، سنة واحدة ليست وقتاً طويلاً، نعود بعدها بمدخرات تساعدنا على تكاليف الحياة التي لا تتوقف عن الارتفاع.

سافر راضي أولاً مرافقاً لزوجته التي كانت تعمل بالتمريض، غاب عاماً، وعاد لثقتي، ويعرض علي أن يساعدني في إيجاد فرصة للسفر والعمل هناك، حيث هو وأسرته.

كيف وجدت نفسي على باب الميناء الجويّ، ثم غريباً في بلد غريب يبحث عن عمل، ليسدّ دين ثمن تذكرة السفر وتأشيرة الدخول، وإيجار سكن يتراكم، حتى أجد العمل.

يمر بك العام الأول في غربتك صعباً وكثيباً، وبلا مفر حيث أحكمت الالتزامات عليك حصارها، حتى إذا ما أنهيتها، وعدت بشوق في إجازة لبلدك وبيتك وأسرته، غدوت كالغريب بين أهلك، ووجدتهم رغم الشوق، ورغبة القرب قد اعتادوا الحياة من دونك، أصبح وجودك

لتلبية طلبات المحيطين بك، تمضي الأيام سراعًا؛ لتعود عامًا آخر في الغربة.

ومن عام لعام تكون قد اعتدت الحياة بشكلها الغريب، وشاركت أهلك استحسان الغياب والتلذذ بوهم الشوق.

ثم أنت تجد لذة في مبرر التسرية عن النفس بتجارب الحب التي ترى فيها تجدد وانتعاش للقلب، وتضع الحياة أمامك الفرص فتتشابك العلاقات والتجارب .

هاهي صورة عامي الرابع من الغربة، كنت عائداً من السفر أحمل رسالة لأسرة صديقي، قابلتني سميحة أخته، تلك التي كانت صغيرة وتزوجت، هاهي ذي قد صارت مطلقة، عادت تعيش مع أمها بعد موت الأب، هل كان من الطبيعي أن يغمرنى ذلك الاحساس المريح لوجودها، ما الذي يجعل الدماء تتجدد في شراييني، وتنعكس على وجهي، وتمنح عيني بريقاً أنا الرجل المتزوج الذي عوده الاغتراب أن يعود إلى بيته بعد غياب بمشاعر أوشتكت على الفتور، أبحث عن حب الطفولة فلا أجد سوى تجربة بريئة مرت، وهذه السيدة ليست تلك الطفلة التي كانت، التي أمامي الآن أنتى تستدعي الغرائز والحواس بكل ما تملك من نداءات الرغبة.

تكررت زياراتي بمبررات مختلفة طوال فترة إجازتي، كنت حينها متزوجًا من أم حازم بعد انفصالي عن زوجتي الأولى، وقتها كان حازم يوشك أن يخرج للحياة، وتعلّلت لنفسي أنني أذهب بحكم أنني أرد الجميل؛ لمواقف صديقي.

كنت مدفوعًا بتوهج القلب من جديد، القلب الذي يدفعك للانتظار عودة تلتقي فيها عزيزًا يعيدك شابًا، بعدما نهشك غول الحياة الاعتيادية.

كبرت النبتة بتكرار الاهتمام، صرنا نلتقي في كل مرة أعود إلى الوطن، لعب القدر دورًا فاعلاً حين ماتت أمها، فأصبحت وحيدة.

تحولت زياراتي العلنية والمتعلقة بالتواصل مع أسرة صديقي إلى زيارات سرية ولقاءات بعيدة، في البداية أنا لم أخرج معها عن طور الحب العذري، ولا أدري إن كانت هي تبادلني نفس المشاعر أم أنها كانت تجد في لقاءاتي صحبة مؤنسة.

صرت أخلق الأعداء، كي أفضي معها يومًا كاملًا، وأعود لبيتي بمشاعر فاترة، أسافر وأعود أتمنى أن تتطور علاقتي، فلا أجرؤ على التقدم خطوة، ما الذي يقف حائلًا بيني وبينها، وقد فتحت السبل كلّها.

حين عدت بعد ولادة حازم ابني بشهور، لم أكن قد رأيتَه، وكنت قد عقدت العزم على أن أنتقل بعلاقة حبي لسميحة إلى مرحلة جديدة، وأعددت خططي، كي أتزوجها، وأحملها معي.

- سأصارع راضي بالحقيقة، سنسافر معاً، وحين أعود لزيارة أولادي ستكونين في بيت أخيك.

- ولكن...

- ماذا بك؟ كنت أظن أن ذلك القرار يسعدك، ستكونين بصحبتني وقريبة من أخيك

- أنا عايزة أصارك بحاجة

لنا صمتٌ طويلٌ بحساب خشية المفاجآت غير المتوقعة، كلانا لا يجروء على قطع الصمت؛ خوفاً من فعل ورد فعل.

- أنا حامل يا حسين

- ولكن أنا...

- ليس لي سواك تخلصني من مصيبتني، أرجوك لا تتخلى عني فأضيع.

دارت بي الدنيا، ولم أجدُ حديثاً يصلح لمثل تلك الحالة، غير أن أتركها وحدها وأمضي...

مرت أيام، لم أذُق النوم، كنتُ على وشك أن أنهي زيارتي لبليدي وأعود، حين جاءني اتصال من سميحة، توصلت حتى أكون إلى جوارها في ما هي مقدمة عليه، ولم أكن أعرف ما الذي تنوي فعله، كنت أظنها ستتخلص من حملها بإحدى الوسائل المعروفة؛ لتواصل حياتها بلا مشكلات.

كنت أجادل نفسي في ما يمكن فعله، تمتلّت أمامي المواقف كلّها، التي مررت فيها مع صديق عمري، كل الأزمات والأخطار التي واجهتنا وتجاوزناها، شرف البطولات التي خضناها سوياً، كيف لي أن أكون سبباً في ضرر، يصيبه أنا الذي افتديته ذات يوم، وحملته مسافات جريحاً لإنقاذ حياته، وهو الذي يرعى الجميل، ويصونه ويقوم مقام أخ لي.

اعتصرني الجدل، حتى حسمت أمري ألا أكون ندلاً، وأن أنقذ ما بقي من علاقتي بصديق عمري، وألا أكون سبباً في فضيحة تناله مهما كانت النتائج، ومهما تحملت من أعباء.

لم يكن لدينا حلاً، سوى أن تنتقل سميحة إلى مدينة أخرى، حتى لا ينكشف سرها، وأن أعقد قراني عليها، كي يكتب وليدها باسمي.. هكذا فعلت.

كان ذلك صدمة لصديقي، الذي لم يكن يعلم شيئاً عما حدث، سوى أن أخته اختفت، ولا أحد يعرف أين هي، حتى أنا حين عدت لزيارتها في البلد، الذي أودعتها فيه لم أجدها، هل هي على قيد الحياة، أم حدث لها مكروه؟ لم أعد أعرف..

عدت إلى عملي، كنت أتحاشى لقاء راضي، أخشى أن تبوح له عياني، سئمت العلاقات العابرة، حتى الجنس سئمته، بت لا أرغب في معاشرة أنثى، تخلّيت عن عادات التسرية والمرح ولزمت غرفتي والمسجد، أنا لم أكن مواظباً على الصلاة من قبل، لكنني وجدت فيها راحة نفسية وسبباً للخلو.

إذن ماذا تعني الحقيقة لابني؟ أن يبحث عن أخت لن يجدها، أن يرى تلك التي تحمل اسمي، أن يعرف الأسباب، التي دعنتي أن أتزوج أخرى بعد أمه.

وماذا تعني تلك الأسرار له، هل يكفل تلك البنت، التي ربما صارت عروساً الآن، هل تغفر لي تلك البنت، هل تغفر لامها؟

تلك أمانة الأسرار هل نخونها؟ حقاً أنا لا أعرف سبيلاً إليها تلك الأم، التي ولدت بنت باسمي وغابت، لا أدري أين اختفت.

أكنت ندلاً حين أخفيت سرها؟ أم كنت أخشى غضب راضي عليها
ربما قتلها، وقتلني وضاعت الأسرتان.

ملعونة تلك الأوراق الرسمية، التي تنهشنا وتنش في حياء ماضيها،
وتكشف أسرارنا التي أخفيها عمراً، ثم هي تعيدها، لتعيدنا نبحت ونفتح
الجراح.

توترات حازم

تجادلني نفسي اللوامة، وتدللني غرائزي البشرية، والليل محرض
ومثير لرجل مشحون بما يكفي ليسبح بخياله في بحر اللذة، يتوق إلى
نيل مالم يصل إليه في الواقع بعد استثارة واستفزاز لمشاعره.

وحدي.. بلا رقيب ولا حواجز تمنعني عنها، كأني امرأة أخرى أصغر
سنًا، وقد استيقظت مشاعري بعد طول غياب، لعلمي أرتوي ولو
بالخيال، وأتمثلها تتحرك حولي بقميص بنفسجيّ يشبه ثوبها، الذي
تركتها به، تأتيني على مهل، تداعب خيالات شهوتي، تلمسني، تتحسس
جسدي، وتفرش شعرها على صدري، وتفتعل الهدوء فتثيرني، أعريها
بحواسي وخيالي وأفعل بها ماشئت، وكأنني أسمع صراخ نشوتها، أبيض
حتى أذوب جوارها، فإذا ما غفوت قليلاً داعبت أحلامي، فأعيد الكرة،
ثلاث مرات في ليلة واحدة، أنا الذي كنت قد زهدت في الجنس، وكل
محاولاتي في لقاءات العبث الجنسية بفتيات باءت بالفشل، آخرها
محاولة محمود صديقي التسرية عني بعد زواج حبيبتي، ووعدها لي أن
لن ينالها هذا الزوج، ثم رؤيتها فجأة تسير بجوار زوجها بملابس
الحمل.

كرهت حينها النسوة الحوامل وأصبح الغثيان يصيبني، كلما رأيت
واحدة منهن ببطنها المنتفخ، كرهت المشاعر الرومانسية واشتتاء اللقاء
بفتيات يقاربنني في السن.

نصحتني صديقي بزيارة طبيب الذكورة، الذي فحص أعضائي
وطلب بعض التحاليل الطبية واختبارات الأوعية الدموية والأعصاب، ثم
أخبرني أن لا شيء عضوي، يمنعني من الممارسة الجنسية، وأنني ربما
أمر بضائقة أو اكتئاب أو حزن أو مشكلات، و أنني ربما احتاج زيارة
طبيب نفسي، ولكنني أهملت زيارة الطبيب النفسي كوني أبحث عن
عمل، وليس لدي عائد ماديّ يكفي تكاليف المعالجات النفسية، تناسيت
الموضوع؛ فنسيتته.

حتى ظهرت تلك الأنثى التي تكبرني بخمس سنوات أو أكثر،
لتعيدني لفرش مبتل ولزج وملابس امتزجت بالعرق وروائح الشهوة،
وشوق لموعدها لقائها.

الآن، عليّ أن أسترخي وأهدأ، وأنعم بأثار اللذة، ربما غفوت حتى
الموعد المحدد لها، فالصباح قد أشرقتم شمسه فعلاً.

نم الآن يا حازم.. فأمامك يوم غامض ينتظرك، وسيدة غامضة
استحوذت على مشاعرك، ستذهب للقائها عقب ليلة حمراء قضتها بين

أحضان رجل آخر دفع لها أجرتها، امرأة داعرة مهما كانت أسبابها.. هي داعرة.

لكنني سأذهب لإحضارها في الموعد، ربما تعرضت للخطر، ثم أنها تركت تلك الحقيبة في سيارتي، وأوصتني.. والأرقام التي تركتها معي! ماذا لو حدث لها مكروه! ماذا لو ماتت بين أحضان الرجل! ماذا لو مات هو! وتعرضت هي للمساءلة!؟

دع عنك التساؤلات والتبريرات، لا تعكر صفو الاسترخاء بعد اللذة المصطنعة، ونم بهدوء.. نم الآن.

سميحة

أنا سميحة محمد راضي، قررت أن أسجّل يوميات من عمري، أكتب عن الأحداث، عن الناس، الفرح، الحزن، الحب، أكتبها من دون خوف أو قلق، أزيدها كلّ يوم سطورًا، وأخفيها إلى ماشاء الله، وحين ستكون هذه اليوميات بيد أحد، سأكون قد رحلت إلى عالم آخر.

لا تتعجبوا يا سادة من صياغتي لمذكراتي، فأنا لست على قدر ضئيل من التعليم والثقافة، مثلما يشي مظهري، أنا سليلة أسرة مستورة الحال، تفتّح وعيي على أب ينتقل من حرب لحرب، وكأنّ المعارك قدره، نحتت وجهه من صخر، وصقلته بصورة رجل مهاب، محارب عركته الحياة بكل ما فيها من شدائد وحروب وهزائم وانتصارات وانتكاسات.

أخي الأكبر سعيد لم يكن يشبه أبي في شيء، تلقى تعليمه، وأعفي من الخدمة العسكرية، واستقل بنفسه بعيدًا عن أسرتنا، أما أخي الثاني راضي فهو الأقرب إلى قلبي، وقد ورث صفات أبي وهيبته، وكما كان أبي محاربًا، كذلك كان راضي، اختصه القدر بالتجنيد قبيل حرب أكتوبر، فحارب وعبر وحمل بطولة العبور والنصر، كذلك كان صديقه الأقرب حسين المصري.

- من أين إذن أبدأ أحداث حياتي؟

في البداية دائماً نحتار، كيف نبدأ؟ وأي اللحظات الفارقة سنتخذها نقطة انطلاق لنسترسل بعدها، وأنا أحمل من اللحظات في رحلة الحياة نقاط فاصلة، فبأي منها أبدأ؟

هل أبدأ من لحظة صحوة الوعي بقبلة، أم من لحظة بتر شغاف اللذة؟ هل كان زواجي وفشلي هما الخط المفصلي في رحلتي، أم أنّ حملي لثمرة وقت عابر وضعني على الخطوط الفاصلة، ورسم مسار حياتي البائسة، التي أعانيها حتى الآن، وتعانيها ابنتي دونما ذنب.

كلّ ما ذكرت كان متاهة عُمرٍ دوائرها ملتفة حول بعضها، وأنا أسير مع التفافات الدوائر بلا مخرج.

سأبدأ من نقطة البداية، القبلة البكر الطفولية حين كنت أنا وحسين نلتقي صغارًا، نتقارب.. نتلامس ببراءة، نكبر قليلاً، تكبر معنا مشاعر جلودنا باللمس، نستعذب القرب، ولا نفرس السبب، وكلما ازدادت عذوبة اللمسة أدمنا الفعل.

كنت قبيل مشارف أبواب المراهقة في نهاية المرحلة الابتدائية، أما حسين فكان رجلاً في صورة صبي، يكبرني بسنوات.

اعتدنا القبلات المسروقة في عجالة نزول الدرج، حتى وشى بنا من رأى، لم يؤاخذني أبي ولم تعفني أُمي، وإنما ترك الأمر للتشاور العائلي، وتوالت القرارات العائلية المختلطة.

منعت من الخروج بمفردتي، ومنعت من مخالطة أولاد الأقارب، وتم تكليف أخي راضي بصحبتني حتى باب مدرستي ذهابًا، وإعادتي إلى البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي.

وجاء قرار جدتي قاسيًا، لا أدري كيف أقنعت به أُمي؟ وصدر القرار، وتم التجهيز لتنفيذه بتكتم؛ إذ حضرت جدتي ذات صباح قبيل استيقاظي، كانت بصحبة سيدة غريبة ترتدي جلبابًا أسود، أُغْلِقَت النوافذ وُأَسْدِلَت الستائر، وتم الختان في سرية.

لم أبك ولم أفهم حين قالت جدتي لأُمي: أن ذلك ضرورة لحمايتي، وضعوني بعدها بالفراش أيامًا قدموا لي الحساء والدجاج حتى تعافيت، كانوا قد جاءوا بشهادة طبية أنني أعاني من نزلة برد حتى أعفى من الذهاب إلى المدرسة.

عدت إلى مدرستي، وقد تبدلت، لم أعد أنا تلك الفراشة التي تقفز بمرح، غاب عن صوتي ذلك العبث الطفولي الرنان، وغلفه شجن رصين.

غاب حسين عن مسيرتي أنا وراضي إلى المدرسة، وصحبتني راضي وحده حتى باب مدرستي، وأنا أعلم أنه يراقبنا عن بعد، حتى إذا اطمأن أخي بدخولي المدرسة، التقيا ليكملا السير إلى مدرستهما.

كبرنا بلا تواصل، وتفرق كل منا في طريق، أكمل حسين وراضي تعليمًا جامعيًا، جاءت من بعده سنوات الخدمة العسكرية، أتممت خلال غيابهما تعليمًا فوق المتوسط وتخرجت من المعهد الصحي وتخصصت في التحاليل الطبية، ولم يُسَمَّح لي بالخروج للعمل، رغم حاجة سوق العمل لتخصّصي بالداخل والخارج، جاءني عرض للعمل بإحدى المستشفيات بالكويت، حيث يعمل أخي سعيد، الذي رأى حينها أنني لو سافرت، ربما صادفت هناك الزوج المناسب، أو حتى تحملت نفقات زوجي من خلال ما أدخره من عملي، وأؤمن لنفسي حياة طيبة.

أخي سعيد كان يرغب في أن يرفع عن نفسه مساهماته المادية لمساعدة أبي في تكاليف زوجي.

رفض أبي كان قاطعًا، تباعد بعده تواصل أخي سعيد معنا، ثم تزوج ولم نكن نراه إلا نادرًا، حتى نسيت أن لي أختًا أكبر، أصبح راضي هو السند لأسرتنا، وهو صاحب الكلمة بعد أبي.

البنات للزواج والبيت، هكذا قرر أبي، وتوالى الخطّاب حتى تم اختيار من استحسنوا خلقه، وكان الأقدر على تكاليف الحياة.

تزوجت بمن لا أعرفه، رجل طرق الباب، وطلب الزواج ضمن من تقدموا لخطبتي، جاءت به الصدفة في عودة من سفر باحثاً عن زوجة، بعد أن أتم تكاليف الزواج، كان مناسباً كزوج لفتاة لم تر من الرجال سواه.

قبلت الزواج، حاولت التأقلم مع الحالة، قلت لنفسي هكذا تزوجت أُمي وهكذا كان زواج جداتي، كن لا يختلطن ولا يعرفن رجالهن إلا في الليلة الأولى، وربما تلصصن من خلف النوافذ، لتري الواحدة منهن رجلاً سيأويها بعد ساعات بين ذراعيه.

الخوف كان سيد اللحظة ورفيق الليلة الأولى، فأسدل جداره الجليدي الفاصل، لم أعرف طعم القبلة الناضجة، ولم توجج مشاعري، واللمس كان شوغاً، والعناق اختناق.

شهور من العشرة لم تبدل الحال، عدت إلى بيت أبي، مكثت سنتين حتى تحررت من القيد، فضلت البقاء بجانب أُمي، بعد زواج راضي وسفره، وموت أبي.

أين كان حسين حين اختاروا لي زوجاً غيره؟ الحقيقة لم يكن حسين مرفوضاً، و لم يكن -أيضاً - منتظراً.

حسين رجل حديث التخرج ينتظر الانتهاء من أداء الخدمة العسكرية، ومن بعدها ينتظر فرص العمل.

ماذا يفعل رجال حاربوا، وحققوا النصر، وعبروا، وحملوا الأوسمة والنياشين، ثم خرجوا للحياة المدنية، فداهمهم زمن الانفتاح؛ حاملاً سلعه ومتطلباته وسوقه النهمه، متطلباته التي تنهش الدخل الشهري، وتقتصر اليد عن متطلبات الأسر.

سافر راضي، وتبعه حسين وغيرهم، بقيت وأمي نحيا على الرسائل، تبدل الحي والجيران، تبدلت طبائع الناس، تفتت البيوت وانقسمت بين الورثة، حاول أخي سعيد استثمار بيتنا وتحويله لبناية عالية، راضي فضّل أن يظل بيت العائلة كما تركه أبي.

اشترى راضي نصيب أخي سعيد، بما جمعه من كده في الخارج؛ ليضمه على نصيبي ونصيب أُمي، بقي بيتنا الصغير لم تنهشه كتل الطوب والأسمنت، لكنّه اختنق بحصار الحوائط وارتفاع الجدران من حوله.

يسافر راضي، ويعود في زيارة سنوية، يرسلنا ويرسل لنا الهدايا مع رفاق الغربة، أصبح حسين زوجاً وأباً، يأتي لزيارتنا وحده يحمل رسائل أخي راضي، يجلس بيننا، يستمع لأمي، ويحمل ما نشاء إلى أخي، يرحل ويعود كما راضي.

تموت أُمي فتنهشني الوحدة، بعد تفرق رفاق الطفولة وجيران العمر،
الذين تبدلت بيوتهم.

الصدف دهشة تغزو قلوبنا، تأخذنا إلى حيث تنتظرنا أقدار، وتتركنا
نكتشف التفاصيل، تلك التفاصيل المحملة بالشخوص والأحداث.

هكذا كان مجيء وجددي إلى حيننا في إحدى البنايات العالية، التي
حلت محل بيت مواجه لبيتنا.

تغدو جلسته بجانب الشرفة مشهدًا يوميًا منعكسًا على زجاج نافذتي
من أعلى يؤنس وحدتي، وفي كل يوم تقترب المسافة يصبح وجهًا مألوفًا
لي.. أنتظر قدومه كلما غاب عن جلسته المعتادة، بل أنني كنت
أصطحب وجهه معي، كلما غبت بعيدًا عن المشهد المنعكس، حتى
أصبح طيفًا يلازمني، يعيش معي في بيتي، بت أطمأن إلى هذه
الشراكة الآمنة.

لماذا - إذن - لا نتشارك تفاصيل الحياة، أجرب ذات صباح أن
أجلس؛ لتناول قهوتي في مواجهة مرآة نافذتي، فأراه يتناول قهوته، ربما
كانت صدفة، فلأجرب مرة أخرى في وقت آخر.

أعدّ طعام غدائي، وأضعه على طاولة، أمام نافذتي فأرى صورته
المنعكسة على زجاج نافذتي، وقد أعدّ طاولة طعامه، أغيب في قضاء
لوازم بيتي، وأعود أطمئن على وجوده المنعكس على زجاج نافذتي.

تتبدّل الفصول، ويحل الشتاء، يصبح اغلاق النافذة أحياناً ضرورة،
أفتقد المشهد، ولا أفتقد الطيف، الذي يلازمي داخل بيتي.

صباح شتوي ذاك الذي حملني على التسوق من أحد المتاجر
أتجول بين رفوف البضائع، لأجده مجسداً أمامي، يلقي تحية الصباح،
و يلازمي حتى أنتهي، يدعوني للفظور بمقهى قريب، ألبي دعوته بلا
تردد.

وكانها ليست المرة الأولى التي نجلس فيها سوياً على طاولة طعام،
تتكرر اللقاءات، حتى تصبح اعتياداً، يلقي ضبابه على مشهد زجاج
الشرفة، فيغرب رويداً رويداً، حتى يزول، يتجسّد الطيف رجلاً، وتحوّل
الخيالات إلى وقائع يومية.

أصبح وجود وجدي في حياتي ضرورة، يتسلل في هدوء ولا أحد يراه
يدق بابي بلطف ويمكث معي وقتاً، نتشارك في الطعام واللتزه في
المنتزهات البعيدة، ونعود وأنا في مرح لم أعهده بنفسي من قبل،
استطاع وجدي الاستحواذ على مشاعري، وبات لدي تفاصيل من أسرار
الحياة، وددت لو أجد من أبوح له، لا صديق لي أطمئن إليه سوى

حسين، الذي تتكرر زيارته لي، كلما عاد من سفره، حاملاً رسائل من أخي، وكلما جاء وجالسني أشعر أن لديه هو الآخر، ما يود البوح به، كان حسين قد تزوج للمرة الثانية بعد فشل زيجته الأولى.

في كل مرة، ألمح ترددًا وتلعثمًا عن البوح، ثم ينصرف تاركًا استفهامات عالقة، أنا أيضًا أتلعثم كلما أردت محادثته، والبوح له بشأن متغيرات حياتي، وكلما عاد حسين ازداد ودًا أحسبه من فعل القرب وعشرة العمر وصداقة الأسرة.

غفلتني المشاعر وألقت بذرتها في أحشائي ذات ليلة، حملت ثمرة اللحظة وبت حائرة، في الوقت الذي تعللّ وجدي بضرورة سفره للعمل وغاب، كيف أتصرف وماذا لو علم أخي؟

لا حلّ سوى الهرب، أهرب قبل عودة راضي، لا أود أن يتلوث تاريخ أسرتي بفعلتي، لكن إلى أين وكيف أتدبر حياتي؟

لم يكن لدي حل سوى مصارحة حسين بالأمر، يأخذني حسين لقرية بعيدة يعقد قراننا في سرية، حتى تكون لدي ورقة تساعدني في تسجيل مولودي، يستأجر لي بيتًا، ويترك ما يكفيني من مال، ويمضي يعدني بأن يعود إليّ، كلما جاء في زيارة، وحين عاد في الزيارة التالية، طلبت أن يطلقني ففعل، ترك بيدي وثيقتين ومضى واعدًا أن يزورني كلما عاد من سفره.

لكنتني قررت أن أبدل مكاني الذي اختاره لي، حتى لا ينكشف أمري ولو صدفة، ورحلت إلى بلدة أخرى في جنوب الجزيرة، أستأجرت بها بيتاً، وزرت مكتب خدمات يوفر زيجاتٍ وفرص عمل للبنات والنساء مقابل شهرين من الراتب في حال العمل، وهدايا ومنح وفق نوع الزيجة في حال الزواج، طلبت عملاً مناسباً، وعملت في إحدى المستوصفات الخاصة القريبة من سكني، وأصبح لي جيران آخريين يعرفون أن لي زوجاً مسافراً دوماً، هكذا أضمن ألا ينكشف أمري، ويخسر أخي صديق عمره.

جاءت ابنتي سجلتها باسم حسين المصري كأب، وعُرفتُ هنا باسم رضا لم يعرف حسين عني، ولا عن تلك البنت التي كُتبت باسمه شيئاً، ربما جاء لنفس المكان الذي أودعني به ولم يجديني، ربما بحث عني، وربما لا.. أما أنا فقد أوجدت من جيراني أقارب، واصطنعت لابنتي عائلة من خالات وبنات خالات، باتوا بفعل العشرة والزمن أقارب، و كنت فيما مضى أرثدي النقاب، وأذهب إلى حيننا القديم الذي تبدل، أطمئن على أخوأي وعلى حسين، لم تمض سنوات قليلة حتى تبدل بيتنا الصغير، الذي قاوم الزلزال وبقي، لم يصمد أمام غزو الكتل الأسمنتية فتبدل، ومن وقتها غاب عني مكان أخوأي، كما غاب وجود حسين، كبرت ابنتي وأتمت تعليمًا متوسطًا، وخرجت للعمل.

وعن وجدي الذي غاب فجأة منذ حملي، وتفقدت أخباره عن بعد فلم أعثر له على أثر، ولم أكن أعرف حينها إن كان حيًّا أو ميتًا، فشغلت بحل مشكلتي بنفسي، ولم يكن لدي خيارات للتفكير في حلول أخرى سوى الهرب الذي وضع الحد الفاصل لتك العلاقة.

سنوات في مكاني البعيد، ولدت ابنتي، وكبرت من دون أن يعرف أحد قصتنا الحقيقية، حتى كان يوم رحلت أتفقد أخبار أسرتي بعد مضي سنين، وأنا أضع نقابًا يخفي وجهي، خرجت يومها من الحي ولا أدري أن هناك من ينتبني، ينتقل معي من حافلة إلى أخرى حتى وصل إلى مكاني.. وكان وجدي.

كانت ابنتي حينها في المرحلة الثانوية الفنية، جاء ظهوره في حياتي نقطة تحول حين قرر أن يعيش معي في السكن نفسه، فقبلته حتى لا ينكشف ما ستره الزمن، تم عقد قراننا، ولم أخبر الجيران بالحقيقة، بل أخبرتهم أنه زوجي الذي غاب زمنًا رهن الاعتقال في العراق، وعاد لكنني لم أستطع أن أفنع ابنتي أن هذا الرجل هو أبوها، فانتقلت بعد تخرجها؛ لتعيش مع سيدة نعتها ابنة خالتها وتعلمت العمل بمهن شتى؛ لتعول نفسها.

أما هو فلا أعرف له عملاً لكنني أرتاب منه، يغيب ويعود، يمضي أيامًا بعيدًا، يخفي أكثر مما يظهر، ليس هو الشخص المدهش نفسه،

الذي قابلته يومًا، وأذهلني واستحوذ على مشاعري، وكأنه خلع قناعًا
عن وجهه، وأظهر وجهه الحقيقي.. أم أنه، كان حقيقيًا وتبدل بفعل
الأحداث والزمن؟

أوقات عزيزة

"حلو المكان هنا.. حلو مصر الجديدة!... حلو وشوارعها واسعة وعماراتها جميلة مش طوب مرصوص وعالي لفوق، تحس إن اللي خططها كان عايز السما مكشوفة ومتشافة، تصدق أنا أول مرة آجي هنا مصر الجديدة، التاكسي اللي جيت فيه هارجع معاه ثاني الجيزة، مش ميدان الجيزة لا، دي بلد صغيرة في جنوب الجيزة اسمها أبو النمرس".

- تعرفيه؟
- ميدان الجيزة؟ أه أعرفه..
- أنت..تعرفي السواق اللي جيتي معاه؟
- لا هو بس سواق تاكسي ركبت معاه، واطمنت له، فقلت أرجع معاه أضمن.
- كملّي حكايتك محتاج أسمع حكايات

كنت أخرج من قرينتنا لزيارة أختي فاييزة في ميدان الجيزة، حيث انتقلت للعمل في مكتب الأستاذ هناك، واستأجرتُ سكنًا؛ لتعيش فيه مستقلة عن الأسرة، كانت أمي ترسلني أحيانا لزيارة فاييزة بحجة طلب بعض المال منها، لكنني كنت أعلم أنها ترغب أن يراني أحد الخطاب العرب، فأنا الوحيدة، التي بقيت، ولم أحصل على زوج أو عمل.

ذات يوم جاء زاهد بصحبة صديقه الخليجي الباحث عن زوجة
مصرية، تعرّف علينا، وطلب بعض الخدمات ولم تكن أختي تقدم مثل
تلك الخدمات لعملائها من قبل، فشرح لها كيف تقوم بتوفير خدمة
استئجار السيارات والسائقين، لمن يطلب بدلاً من ذهابهم للمكاتب،
وذلك مقابل عمولة مالية كوسيط، كما طلب استئجار سكن.

في المساء دعانا زاهد إلى مقهى بوسط المدينة، حملنا في السيارة
التي استأجرها، طلب أن أجلس أنا في المقعد المجاور له، كان يقود
السيارة بنفسه، جاب بنا شوارع القاهرة، لأول مرة أرى شوارع القاهرة
وزحامها، صعدنا الجسور فوق النيل، مشاهد المدينة هكذا أجمل،
تعرفت على الزمالك والجزيرة، رأيت جمال الشوارع المحفوفة بالأشجار،
كلما لفت نظري مشهد أو تمثال وسط الميدان سألت عنه، صعدنا
المقطم، ورأينا القاهرة من أعلى، انتهت جولتنا عند مقهى على ضفة
النيل، هناك.. جلسنا بعض الوقت، بدا رقيقاً وأنيقاً وممزوجاً بجمال
المكان وسحر مياه النهر وهمس عصافير الشجر، التي هجعت بعد
عناء يوم، أما أنا فقد عشت شعوراً جديداً، "هل كنت مبهورة بشخصية
زاهد؟" لست أدري هل شغفت بمفاجآته والعوالم الجديدة التي فتح لي
أبوابها، فأخرجني من عالمي البسيط، أم أعجبتني لهجته المختلفة؟
ونطقه للكلمات التي كان أحياناً يبدلها بلكنة مصرية، لا تخلو من توابل
لهجته في تفخيم بعض الحروف، هو ليس خليجياً، هو فلسطيني بجواز
سفر أردني هكذا أخبرنا، لا أعرف سبباً لزيارته لمصر، ولا ماذا يعمل،

لكن بدا لي أنه يملك من المال ما يكفل له الحياة اللاتقة، هنا، في مصر.

تكررت زيارتي لأختي فاييزة، لا أدري كيف كنت أجد لنفسي حجبا أتذرع بها كي أذهب إلى الجيزة، هناك حيث المدينة تختلف عن بلدتنا الصغيرة، أرى أناسا مختلفين ولهم طرائق تفكير طورتها الحياة المدنية والوسائل الحديثة، تصحبنى أختي كل يوم معها إلى المكتب الذي تعمل به، أحببت المكان، وتمنيت أن أعيش هناك، طلبت من والدي أن أنقل للعيش مع أختي، وأن أنهى دراستي المتوسطة في مدرسة بمدينة الجيزة.

أنهيت الدراسة، واستقلت أختي بمكتب خدمات يخصها، لم يستهويني العمل مع أختي في مكتبها، لكنني كنت أرافقها أحيانا، أما زاهد فقد اعتاد زيارات المكتب عند أختي، كلما عاد من سفر.

لا أعرف إلى أي البلاد يسافر ولا من أين يأتي، حين يعود حاملا بعض الهدايا لي ولأختي، اعتاد-أيضا - أن يدعونا على العشاء في أحد المطاعم بالقاهرة، يصحبنا بسيارته المستأجرة؛ إذ يقوم مكتب أختي بتوفير كل الخدمات المطلوبة له في أثناء وجوده بمصر، لقاء عمولة محددة ومتفق عليها، منذ تعرف على مكتب فاييزة صارت تعرف مواعيد وصوله من خلال محادثات تليفونية يجريها معها قبيل وصوله، فتقوم باستئجار شقة وسيارة وسائق يكون تحت خدمته طوال مدة إقامته.

فايزة تراقب توترات في أثناء وجودنا بصحبة زاهد، وأنا أحتار أينما التي تستهويه أكثر، وتمنحه الدافع لصحبتنا، أما هي فيشغلها الدافع الذي يضمن بقاء زاهد بصفته عميلًا دائمًا لمكتبها.

أتأمل انفعالاته، هو يبدو مهمومًا مهما انغمس في ملذات الحياة، شيء ما يبدو مكسورًا داخله.

صحبتنا ذات مساء إلى ملهى، لم أكن من قبل أعرف تلك الأماكن، قضينا ليلة من ليالي أناس لا نعرفهم ولسنا مثلهم، تعشنا طعامًا لا يشبهنا، ورقصنا وضحكنا.

فجأة قام زاهد رقص معي، واحتضنتني، طلب أن يتزوجني في نفس اللحظة.

- قولي زوجتك نفسي، قلت:

- زوجتك نفسي

حملنا بسيارته نجوب شوارع القاهرة بعيد الفجر، حتى انكشف النهار، قامت فايزة بمهاتفة أبي الذي جاء وحده، فذهبنا إلى أقرب مكتب توثيق وإشهار، هناك عقد قراني على زاهد، بعدها قمنا بتوصيل أبي إلى موقف السيارات؛ ليعود إلى بلدتنا، كما أوصلنا فايزة حتى شقتها، أصبحت زوجته بين عشية وضحاها، كنت في الأمس أراه بموعد، اليوم

بت معه في مكان واحد، :”تقصدين سرير واحد” هكذا عقب الرجل،
أكملت: كان كالحلم يأتي يقضي معي شهراً ثم يغيب، يتركني وحدي
ويترك لي بعض المال، الذي أعيش منه طوال غيابه.

في البداية فكرت أن أعود للحياة مع فائزة بعد سفر زاهد، لكنها
تباعدت عني منذ زواجي، لم أكن أعلم أن فائزة لا تقدم خدمات مجانية
حتى لأختها، إلا بعد أن أخبرني زاهد بقيمة العمولة التي تقاضتها منه
مقابل زواجه مني.

خمس سنوات مرت على زواجي، كنت أزور والداي وأساعدهم
بالمال، وأساعدهم في نفقات العلاج بعد أن داهمهما المرض، مات
والدي وماتت والدتي بعده بشهور، وانقطعت عني أخبار سامية المقيمة
في المملكة السعودية، باعت بيتها الذي بنته في بلدتنا، واشترت شقة
في ميدان الجيزة.

غابت عني -أيضاً - أخبار هناء التي تأتي في زيارات ولا أراها،
حيث اعتادت أن تقيم في فنادق القاهرة مع زوجها، صرت وحدي أعيش
في سكن بسيط، بما يتركه لي زاهد من مال، فإذا جاء انتقلت للعيش
معه في سكن فاخر.

كنت قد تعرفت على سيدة وحيدة مثلي اسمها سميحة، زوجها دائم
السفر مثل زوجي، جاءت إلى بلدتنا ذات يوم، ونحن صغار أقامت

بالقرب منا، كانت تعمل في مستوصف البلدة، ساعدتني كثيرًا في أثناء مرض أُمِّي.. أصبحت السيدة سميحة أختي، التي لم تتجبه أُمِّي، لكنها فضلت أن تكون خالتي، هكذا علمت ابنتها التي تصغرني بسنوات، قالت لها أنني ابنة أختها.

انتقلنا أنا والسيدة سميحة وابنتها؛ لنعيش في بلدة أبو النمرس بعد وفاة والديّ، أغيب عن شقّتي القريبة منها وقت وجود زاهد، وأعود بعد سفره إليها، لا أحد يعلم عني شيئًا في تلك البلدة، ولا حتى ابنتها.

لعلك -الآن - تتعجب من طريقة سردي للحكايات، لكنني تعلمت على يد زاهد الكثير، جاء لي بالروايات والكتب، فتح عيني على حياة لم أكن أعرف عنها شيئًا، تحدث معي في قضايا عامة، ورأيت بعينه بلادًا لم أرها، لكنني لم أعرف شيئًا عن حياته؛ بعيدًا عني.

غاب زاهد ذات مساء، سافر بعد أن قضى معي شهرًا، كما أول شهر في زواجنا، ودعني ليلة سفره وداعًا مختلفًا لم أفهم حينها أنني لن أراه ثانية، انتظرته طويلًا، سنوات مرت وأنا أنتظره، ذهبت إلى مكتب فائزة الذي اتسع نشاطه وتغير، قابلتها بصعوبة، وأخبرتني أنها ليس لديها أخبار عنه، تركت لها رقم هاتفي، حتى تتواصل معي حال معرفتها أخبار عن زاهد.

كان يجب أن أعمل لأتدبر معيشتي، فلم يعد لدي مصدر تمويل يساعدني على الحياة في غياب زاهد، أخذتني السيدة سميحة معها لأعمل موظفة استقبال في المستوصف الذي تعمل به، عملت معها سنة كاملة ثم أغلق المستوصف، أغلقت وزارة الصحة لمخالفته الشروط القانونية.

وجدت السيدة سميحة عملاً في معمل تحاليل طبية، ورحت أنا أبحث عن عمل حتى التقطتني صاحبة محل للملابس؛ لأعمل لديها بائعة، في أثناء عملي معها كانت ترسلني ببعض الطلبات من الملابس الجاهزة لمكتب الأستاذ، هي أيضاً تعرفه كما كانت فائزة تعرفه من قبل.

هانفتني أختي فائزة ذات صباح أخبرتني أن عميلها السعودي صديق زاهد نعى إليها خبر استشهاد زاهد في أثناء زيارته لأسرته في فلسطين، صرت أرملة لا أحد يعرف لها زوجاً قبل أن تفقده.

لا أدري إن كان زاهد قد توقف يوماً؛ ليسأل هل أنا أحببته؟ أم أنني كنت أهرب من واقعي بزواجي منه، لم يسألني عن الحب، وأنا لم أتوقف لأسأل نفسي، لماذا قبلته زوجاً؟! وكيف كنت أستمتع بالحياة معه؟

حزنت لغيابه حقاً، كلما مر طيفه بخيالي تذكرت غيمة الحزن التي كانت تسكن في عينيه، أنا -أيضاً- يسكنني حزن وقلق لا أعرف مصدره، أخشى الحب، الذي يعصف بالإنسان، يزلزله ثم يتركه حطاماً

يعيد ترتيب نفسه من جديد، فيتشكل شخص آخر غير الذي كان،
شخص هو نفسه لا يعرفه.

هكذا أصبحت أنا، كلما أغرتني قطعة حلوى سعيت إليها؛ لتمنحني
لذة موقوتة وتذوب.. هل تدري أنني لو لم بأسرني لطفك، وتغريني
مباهج قريك؛ لتركتك من أول لحظة، السائق -أيضًا - كاد يغويني،
شيء ما كان يستثير مشاعري نحوه، لولا ذلك الحدث الذي قطع
استرسال الغواية.. ما كنت هنا الآن.. هذه أنا.. التي تبدلت بعد رحيل
زاهد، الذي كان أول قطعة حلوى أغرتني وعلمتني أن المذاق الشهي
موقوت.. هكذا وجدت في زياراتي المتكررة لمكتب الأستاذ طريق
الانتقاء، الانتقاء الذي جعلني -الآن- هنا، ولا أعرف إلى أين يمضي
بي!

تبدلت أيضًا أختي فايضة، لو رأيتها الآن لن تصدق أنها كانت تلك
البنيت التي أحببت ابن عمها ذات يوم، وحاربت من أجل ألا تكون لغيره،
فايضة الآن، ومن قبل، ومنذ تعلمت أن تقول لا، صارت شخصًا آخر
غير تلك البنيت المسكينة، التي حاولت بوسائلها المتاحة أن تقول لابن
عمها لا تدعهم يبيعونني كالجارية، وهو لم يكن سوى عبد يحاول أن
يحصل على ما يبقيه على قيد الحياة، ويقنع بالفتات.

الحب - في هذه الحالة يا سيدي - ترف لا يملكه الفقراء، فاكهة
غالية، وهم -أحيانًا - لا يملكون ثمن الخبز الحاف.

حين قررت فائزة أن تؤمن لنفسها مباحج الحياة، لم يكن لتلك الفاكهة
مكان في سلة متطلباتها، عافت شهيتها طعم التفاح الأحمر رغم غواية
إغرائه.

ها أنت ذا تتثاءب متململاً! رأيت كيف أنني أخفقت في جعل
حديث الحب بيننا حديثًا مبهجًا! حديثًا يمنحك دافعًا لترك وساداتك
الصماء، وأنا تاركة جلستي على حافة سريرك.. انقضى الليل وأنت ممدد
تستمع، وبدا نور الصباح يظهر من بين الستائر، و لم تحك أنت لي، لم
أعرف عنك شيئًا.

- لماذا أنت وحيد هكذا؟ أين أسرتك؟ أليس لك أسرة، زوجة،
أبناء، أب، أم؟ أين هؤلاء جميعًا؟

- لا تسأليني عن شيء، وانسجي حولي القصص كما يصورها
خيالك، قل لي أنني رجل وحيد كسرتني الحياة رغم كل ماترينه
من ملذات حولي، أو ربّما لم يحالفني الحظ؛ لأكون محبوبًا
ومحببًا، دعي خيالك ينسج حول هذا المكان قصصًا، حولي أنا
أيضًا وكل ما تتخيلنه سيكون جزءًا من حقيقة وجودي، أما

الآن، فتعالى هنا إلى جانبي على هذا الفراش، ودعيني ألمس
دفعاً جسديك، لعني أبيض بالحياة.

وقت حازم

- يا حازم أنا جهزت نفسي أخرج معاك النهارده
- النهارده بالذات مينفعش يا أبي عندي موعد مع ناس رايح أوصلهم
- يا بني استنى أنا ناوي أكلمك النهارده بصراحة...
- بعدين يا بابا بعدين

اليوم الاثنين، بداية أسبوع عمل، الشوارع مزدحمة بالسيارات، الإشارات تسرق الوقت، وأنا على موعد مع من سرقت نومي ليلة كاملة، وأتلف للقائها رغم ما يمكن أن يكون قد فعلته في تلك الليلة، رغم وضوحها في التصريح بما هي ذاهبة إليه، ولا أدري من أين يأتي اليقين، بأنها ستعود كما جاءت دون أن يمسه الرجل، أخشى ألا يسعفني الزحام لأصل في الموعد، ترى هل تتحرك من دوني؟ ولكن كيف وقد تركت حقيبتها معي، وأستأمنتني على سرها، حتى إذا ما حدث لها مكروه أبلغت أهلها.

أسير متعجلاً الوصول، حتى وإن وصلت قبل الموعد، سأنتظر حلول الموعد بأحد المقاهي أوفي أقرب ساحة انتظار.

أمر بطالبي خدمة التوصيل، لا أهتم ولا أستجيب لإشاراتهم بالتوقف، أكاد أصدم أحد المتسكعين، هؤلاء الذين يعبرون الطريق وهم يتحدثون بالهاتف، يزدحم الطريق ويضيق، ليعود للاتساع المكاني وزحام تفاصيل المارة والآليات من كل صنف، سيارات، حافلات، دراجات هوائية، عربات خشبية وعربات يدوية ينقل بها الحمالون بضائع.

أمّر قرب ساحة سيدنا الحسين، أتذكر طلب السيدة، أن أقرأ لها الفاتحة في الحسين وأن أدعو لها، لا بأس لماذا لا أفعل.

أترك السيارة بساحة الانتظار وأعبر، أدخل المسجد، أتوضأ، الوقت ليس موعد صلاة فرض فقد انقضت صلاة الظهر منذ قليل، لم أصلها بالبيت، لست مواظبًا على الصلاة، أنا كالبعض الذين يصلّون وقت الحاجة، كم مرة وبخني أبي؛ لتركي فرض الصلاة، كم مرة حذرنى من مغبة ذلك.

توضّأت ودخلت، صليت تحية المسجد، ثم توجهت للضريح، وقفت قبالته لأتوسل بالدعاء، أقول: اللهم..اللهم... ثم لا أجد من صيغ الدعاء ما يسعفني، لم أستطع ترتيب جملة واحدة أدعو بها لنفسي ولا لتلك السيدة.

مرت دقائق حاولت خلالها أن أجد في ذاكرتي شيئاً من صيغ الدعاء المحفوظة فلم أتذكر، قلبي مفعم بالتوسل والرجاء لكنه لا يفيض بما في داخله، ليس سوى ومضات روحي تشفّ عن سيدة تُقَدِّ شالها فنتساقط دعوات المتوسلين حبات لؤلؤ فوقه، حتى إذا امتلأ الشال جمعته وعقدت طرفيه على ما فيه ثم غابت.. "هل كان ذلك محض خيال أم غلبتني هواجسي واعترتني الأوهام بسبب قلة النوم؟!"

مكثت دقائق واقفاً بلا حراك، مرت كأنها دهرٌ أعيشه في ملكوت آخر، كأنني شخص آخر غير الذي كنته، نسيت الوقت والموعود والسيدة، حتى اصطدم بي شخص يحاول الوصول إلى سياج المقام، وهو بيكي، ويتوسل أدعية، لم أتبينها، أفقت بلكرة من أحد الحراس الذين يخرجون الزوار من الضريح بين أوقات الصلاة، خرجت وعيت على أبواق السيارات وأصوات الزحام ونداءات باعة وتوسل متسولون، لا بد أن أوصل سييري.

يдахمني قلق مفاجئ، كيف ستكون أحداث يومي! "هل ستعود تلك السيدة؟ أم تراها أودت بنفسها في المخاطر؟ ترى هل هي معتادة على مثل تلك الزيارات؟ أم تلك تجربتها الأولى؟"

رأسي تعصف بالأسئلة من بعد صفو الوقوف الخاوي من الدعاء أمام الضريح.

أتذكر أنني استهلكت سجائري في ليلتي المشحونة باستجلاب لذة
متخيلة، أتوجه لأول بائع على الرصيف أبتاع سجائر وزجاجة مياه،
استقل سيارتي وأمضي.

لم أعد أنفق معالم الطريق وكأن السيارة تعرف مقصدها، تحماني
الطرقات من متسع لضيق ومن علو لانخفاض حتى أصل، لايزال لدي
وقتاً، سأقضيه في البحث عن مقهى، أحتاج فنجاناً من القهوة يعيد لي
توازني، ويمنحني مقاومة لساعات اليقظة الطويلة.

جدال النفس

أتراه فقد الشغف حقاً هذا الذي فتحت على يديه خزانة الأسرار؟ ألن يبالي بعد الآن إن كانت له أخت من دمه لا يعرفها؟ أم أنه شغله شاغل طارئ، فصرفه مؤقتاً عن إلحاحه، وأيا ما كان السبب، سيأتي يوم قريب وأصارحه.

الآن.. وأنا أتوكأ على عصاتي في كهولة عمري، أسير بين منعطفات الشوارع والدروب، حياتي كلها انتقالات، أسفار وعودة، وطن واغتراب، ذهاب ورجوع.

من حي قديم لحي آخر مختلف، ومن بيت عائلي إلى بنايات عالية، ومن جيرة وأناس يعرفون بعضهم بعضاً، إلى أبواب مغلقة على ساكنيها.. "تطورت الحياة يا حسين وأنت لا تزال ملك سر، جادل نفسك الآن، حاسبها بما لها وما عليها، واحترس وأنت تتوكأ على عصاتك، احذر أن تسيخها في الخنادق الصغيرة، التي صنعها التجريف في شوارعنا، أو تستند بها على نتوءات ارتفعت فوق الأرض بفعل التراكم.. سنوات طوال مرت وأنت تخفي السر، هل كنت تتخيل أن الأسرار تموت؟ الأسرار لا تموت أبداً، الأسرار تكمن في مخبئها، حتى إذا نبشتها يد أو عرتها عوامل التعرية، انتفضت واقفة تواجه أصحابها.. كم تمنيت لو كانت لك ابنة! لو أن زوجة تركت لك بنتاً..

وكم حلمت بتلك الابنة تكبر وترعاك في شيخوختك! حتى لو تزوجت وتركتك فإنها تخصص لك موعدًا أسبوعيًا تزورك فيه".

- نعم تمنيت لكني اكتفيت بأبناء ثلاثة، لم أتزوج بعد رحيل أم حازم، حتى لا أواجه رغبة المزيد من الأبناء.
- لكنك عرفت النساء وأحببت، وللمرة الثانية يكون عليك الاختيار بين حبك وصداقة عمرك.
- أحببت؟ كم يتعني هذا القلب الجامح المتقل من حب لحب، كلما ضاع حب سكن للخواء زمنًا، ثم استفاق على كشف جديد وخيال جديد.
- كم من النساء سكن قلبك، ولم تسكن واحدة منهن بيتك! ودائمًا كانت لك مبرراتك الواهية، حتى ليلي التي جاءتك في وقتها، وكنت في حاجة لوجودها تركتها.
- كانت ليلي شقيقة زوجة راضي، قابلتها في زيارة لصديق عمري، أحببتها حقًا، وتشابهت ظروفنا، هي سيدة أتعبتها الأحداث، وتركت ندوبًا غائرة على جبينها، زواج وفشل وزواج آخر وسفر ومعاناة وتعذيب ثم طلاق دون إنجاب.
- كان يمكن أن تكون أمًا لولديك، ولن يكون لديك مشكلة المزيد من الأبناء كونها لا تتجب، لكنك تركتها؛ لتكون لغيرك، بعدما يئست من انتظارك سنوات، كنت تعاني شعور الذنب المزمّن، الذي خطته على جبينك قصة سميحة.

- وهذه هي قصة سميحة تطاردني، وأنا كهل، وتلاحق أبنائي، أينما كانوا .
- تقصد قصة صابرين؟
- صابرين؟ ما هذا الاسم الغريب على سمعي؟ البعيد عن ذاكرتي، ذاكرة حبي لسميحة، لم نفكر أبداً في هكذا اسم، بل لم نفكر في تسمية أبناء وبنات.
- وهل فكرتما في الارتباط والزواج حتى تفكران في أسماء الأبناء والبنات؟
- أنا واجهت الموقف الصعب، واخترت أن أكون على مستوى الصديق الحق، الذي يرفع حق الصداقة.
- أنت تهزي دوماً بما كان، تجتر تداعيات ذاكرتك.
- أحاول أن أبقى على أحداث البطولة طازجة.. أن أظل على قيد الذاكرة إنساناً فاعلاً.
- ولكنك تُنسى.. وتاريخك لم يبق منه سوى سطور حكاياتك التي تفقد بريقها، وتصدمها حوادث أقرب وأكثر طازجة.
- كفى.. كفى.. هذياناً لنلا نتعثر، لم يعد الجسد الهزيل يحتمل.

عد إلى بيتك يا حسين، عش أحلامك وابتهج برؤية جارتك الخمسينية الوحيدة حين تخرج إلى شرفتها تطعم طيور الزينة، وتسقي نباتات الشرفة، واستمتع بمشاهدة جسدها، وعش خيالك، وهي ترفع ذراعها؛ لتتناول شيئاً من أعلى، أو تنتثي؛ لتبدل موقع كرسيها أثناء التنظيف،

عدّ يا رجل الحب والشهوة المستعارة، وراجع نفسك عن حقيقة نسلك،
راجع أسماء أمهات الشهوة فيهم، الأكبر ربما يكون ابن سميحة.

دع حكاية صابرين تصنعها الأيام، أنت لا تدري ابنة من تلك التي
ولدت لامرأة، مات الانتظار، وجرفت لها لحظة ضعف.

سيد الحكايا

ماذا حدث لهذه السيدة، كيف غابت عن وعيها من دون أن أنتبه لها، كنت أستمع لحكاياتها، فمتى سكتت؟ عند أي المحطات في ذاكرتها توقفت، أم أنني غفوت على حكيها، لأصحو الآن وهي ممددة بجانبني، نائمة أم غائبة عن الوعي.. لا أدري، وأنا أجلس إلى جانبها بعد أن أمضينا ليلة معاً، من دون أن أقرّبها.

لا أدري ماذا أفعل الآن؟ هل أوقظها أم أتركها حتى يعود وعيها لها؟ هي لم تسألني حتى عن اسمي، أنا الذي أستضيفها ليلة واحدة، سترحل بعدها، فلا أراها مرة أخرى، كم سيدة أرسلها لي ذلك الأستاذ الذي لا أعرف عنه شيئاً! سوى رقم هاتفه واسمه دلّني عليه صديق عربي، التقيته في ملهى ليالي الشرق الليلي بتايلاند، حينما رأى هذا الصديق ولعي بحنان المغنّية، التي تعمل بالملهى، ذات الأصول المصرية الريفية، جالستنا حنان مرات، فأعجبتني وحرصت على مرافقتها لي في رحلات ترفيهية لبلاد أخرى بعد انتهاء لزيارتي لتايلاند.

كم سيدة جاءت ومضت! كم سيدة حكّت فلم تمسني حكاياتها! بت أعرف حكايات حقيقية وأخرى ملفقة، أستطيع أن أفرق بين الأحاديث الصادقة والمزيفة أو المجاملة، فإلى متى أظل أبحث عن ضالتي بين النساء.

المرأة التي تأتيني طائعة نقول: "هيت لك..." ثم تستغرق في شجنها الكامن، وهي توخر ضميري، وتغلق ما دون ذلك من شهوات، فتستغرقني شهوة الحكايات، أستمع وأحكي.

كم وددت أن أبوح لهذه المرأة كما باحت هي من دون حرج، أحكي لها تفاصيل، لم أحكها لسيدة من قبل.

كلهن يأتين ويرحلن ممتات لكرم رجل، لم يأخذ مقابل ما أعطى، بعضهن يحاولن بدافع الامتنان، ويرغبين في تقديم المقابل، ولا يعلمن سر عزوفي عنهن، أنا -فقط- مستمعُ حكايات، حالماً أن أجد حكايتي بين نسيج ذاكرة إحداهن.

أنا سيد خارج من تشابكات عقد الحياة، حتى وصلت إلى هذا المكان، لست ابن هذا المكان، وكل ما بقي في ذاكرتي هلاميات عن بلدة صغيرة وبيت وأسرة.. حتى اسم بلدتي لا أذكره.

خرجت طفلاً ابن أربعة أعوام أو أقل لا أذكر حين اصطحبتني سيدة للتسوق، ربما كانت أمي وربما أخت كبرى، وربما جارة، لا أدري، فكل ما علق في الذاكرة بعض من مشاهد السوق واليد التي تمسك بي وأشياء صغيرة أحملها وقطعة حلوى تسكت ضجيجي وإلحاحي.

كانت تفلت يدي كلما وقفت أمام عربة أو بائع، تختار حوائجها فأظل واقفاً بجانبها لا أتحرك، حتى تنتهي، فتعود تمسك يدي، ونسير منتقلين من بائع لآخر.

لحظة فارقة، تلك التي انتقلت فيها من يد لأخرى، حين سقطت بجواري السيدة التي صحبتني، أتذكر أنها سقطت وهي تنتقي أشياء تشتريها، كنت متحرراً من قبضة يدها، حتى إذا التفّ الناس حولها ضعت في زحامهم، ولا أدري هل أفاقت تلك التي كانت تصطحبني بعد سقوطها أم أنها غابت للأبد؟

حينها، لم ينتبه أحد لوجودي، بينما كانت هناك يد أخرى لوحت لي بالحلوى والبالون، وأمسكت يدي، ثم انسحبت بي بعيداً، كان ذلك آخر عهدي بأسرتي، وبكل ما أنتمي إليه منذ مولدي.

ضمّني بيت جديد وبعيد وغريب، اغتربت أياماً وبكيت ثم التهمتني المغريات: طعام جديد، ملابس مختلفة، لعب، دفاء، ممتلكات لم تكن لي من قبل.

غرقت في عالم غطى كل التفاصيل السابقة حتى غابت عن ذاكرتي، ولم أعد أعرف أسرة سوى تلك الأسرة، التي وعيت من نومي بعد عناء يوم وسفر فوجدتها، لا أذكر كم أمضيت معهم هنا، متى رحلت معهم.. أنتقل من بلد لبلد، تلاشت كل الأحداث من ذاكرتي وبقي

أنني ابن لتلك الأسرة أحمل اسمها بوثيقة ميلاد، لا أذكر لي اسمًا غير سيد، وربما احتفظوا لي باسمي الأول كما هو، كما أخبرتهم حين سُئِلْتُ يومها، ليأمنوا تلعثمي في إجابة النداء.

هكذا شكلتني الأقدار، ورسمت تفاصيل حياتي المغلفة بورق الهدايا، في الواقع تشكلنا أسرة نموذجية وثرية، أب وأم وابن وحيد ينعم بحبة واهتمام، سافرت معهم، أينما ذهبوا، كبرت في بلاد بلا قيود، عاشرت النساء هناك بلا قيود، حتى إذا ما سئمت قيود أسرتي، وتملك سيدتي التي ربنتي، تركتهما لأعيش بمفردي مع رفيقة لي، ولم أنفصل عنهما بل كنت أزورهما، وأهتم بشئونهما كابن يبرّ والديه.

مات أبي هناك.. وعدنا به لنواري جثمانه في وطنه، ونهني الإجراءات الرسمية في توزيع تركة أبي، وكما هو قانوني وشرعي بالأوراق الرسمية، فقد ورثت الرجل كابن بشهادة ميلاد وورثت زوجته نصيبها القانوني.

عشت مع سيدتي، التي ربنتي كأُم وحيدًا، ملكتني تلك السيدة وأحاطتني برعاية واهتمام، لا أنكر أن اهتمام سيدتي بي أسرني، واستسلمت له، بل استمتعت بهذا الاهتمام، الذي منحني إياه عوضًا يمحو كل أثر لذاكرة العقل والقلب والجسد.

وحتى الآن أنا لم أحك لك سري الأعظم، ذلك الذي قلب حياتي
رأساً على عقب وأعادني إلى هنا وحيداً وغريباً.

أنت لاتدرين أنني شغفت بتك المرأة التي ربنتي، كما شغفت هي بي،
منذ فقدت زوجها الذي رباني مثل أب، أعطتني كل وقتها واهتمامها،
ظلت وصية عليّ كابن ورث عن أبيه، حتى بلغت السن القانونية،
فتسلّمت ميراثي.

فررت من شغفي بها بحجة مواصلة دراستي في بلدان أخرى، قررت
أن أغرق في البحث والدراسة.

أنا الآن ألمس جسدك الغائب عن الوعي في فراشي، أحكي لك
باسترسال، وأنت تتعمين بالسكون والهدوء، أتأمل جسدك بلا رقابة، ولا
أتجاوز التأمل بفعل أحمق، وأعرف أن أسراري مهما بلغت من غرابة لا
تعني لك شيئاً، وأن أسرارك التي حكيتها، مهما بلغت أفعالها، تمر كما
مرت أسرار كثيرة وثقيلة قبلها.

غيبني في اللاشيء المبهم - أيتها السيدة - بأمان.. ربما لم تتعمي
بهدوء من قبل كما أنت الآن، وحيدة أنت مثلي، ولا أحد يسأل عن
غيابك إن غبت غير هذا الذي واعدته أن يعيدك من حيث جئت،
سينتظرك قليلاً، ثم ينصرف إلى طلبات توصيل أخرى.

البحث

الوقت الضائع بين حديثين: ثقيل وممل، وأنا أجالس السراب الذي يطفو على وجه الفنجان.. فقايع صغيرة، تذوب على شفتي، كلما لامست الفنجان، وسحبت رشفة منه، هذا هو فنجان قهوتي الثالث، وأنا جالس؛ لتمضية الوقت المتبقي على موعد تلك السيدة.

نعم اعتدت الانتظارات، حياتي كلها انتظارات مختلفة النكهات والمفاجآت، منذ وعيت، وأنا انتظر عودة أمي من العمل؛ لتأخذني من بيت جدي، عودتها من زيارة قصيرة لأبي قبل أن نلتحق به، عودة أبي من سفره حاملاً حقائب وهدايا، الترقب القلق لرحيله ثانية حاملاً حقائبه، حتى إذا ما لحقنا به؛ ليلنتم شمل الأسرة، تبدل طعم انتظاري.

بث انتظر زيارات الوطن ولقاء الأهل والصحة، مراحل الحياة كلها انتظارات للانتقال..التعليم، التخرج، التجنيد، العمل، كلها انتقالات.. يسبقها انتظار، وتأتي مفاجآت، أحياناً غير متوقعة، وأحياناً صادمة كانتظاري لمصارحة أبي، سنوات انتظر الحقيقة ولا يبوح أبي حتى مللت.

الانتظار-الآن - بطعم مختلف، كالتوجس من الضحك والفرح؛ خوفاً أن يقطعهما حزن، كاستشعار الخطر، وكالهدوء المشوب بالحذر.

أنهيت فناجين قهوتي، وحن الموعد المحدد لاستقبالها، نظري
موجهنحو بوابة البناية التي دَخَلْتُهَا، تمرّ الدقائق ببطءٍ شديد، نتجاوز
الثالثة عصرًا ببضع دقائق.

لا بأس.. أنتظر بضع دقائق أخرى، فللنساء أسباب تؤخرهن، لعلها
تعجلّ الحضور كي لا أتعرض لمضايقات من حراس وساكني العقارات،
الذين لا يعلمون لماذا يطول توقفي هنا، ولو سألني أحدهم فلن يجد
عندي مسوغًا منطقيًا أتعلّل به، فماذا لو قلت لهم: إنني أنتظر سيدة
ستأتي.

أدخن سيجارتي الخامسة، ولم تأت، يخرج الحارس يطالبني بالتحرك
من أمام المبنى، فهذا وقت خروج شخصية هامة تسكن في نفس العقار،
الآن عليّ أن أتحرّك من الشارع كله، كي يخرج السيد المهم، هكذا
أبلغني الحارس، تحرّكت مبتعدًا عن المكان درت في شوارع جانبية،
حتى إذا شعرت سيولة مرورية توحى برحيل موكب السيد، تحرّكت
عائدًا، حاولت الاتصال بها كي اطمئنّها بأنني في انتظارها، هاتفها
مغلق، عدت للوقوف أمام المبنى متوجسًا من تصرفات سيدة غامضة.

كيف لسيدة بسيطة مثلها أن تزور رجلًا في عقار تسكنه شخصيات
مهمة! من هذا الرجل الذي جاءته من بعيد؟ وكيف تعرفت عليه؟ كيف
أمضت الوقت بصحبته؟ هل كانت تعلم أن العقار، الذي تبيت فيه

يسكنه أناس مهمون يتحركون بمواكب؟ وتفسح لهم الطرق وتؤمن مسيرتهم من بدء التحرك حتى الوصول.

أحاول مهاتفتها مرات، ولكن هاتفها مغلق، انتابني القلق، ماذا لو أنها تعرضت لمكروه، ماذا لو كان الرجل الذي استقبلها صاحب سطوة، أليس من الممكن أن يمضي معها وقت المتعة، ثم يتخلص منها حتى لا تفشي سره؟

هواجس كثيرة تحاصرني، قرأت مرات عن هؤلاء الناس الساديين، الذين يجدون متعة ولذة جنسية في تعذيب الأنثى التي يعاشرونها، ماذا لو كان الرجل الذي تزوره يعاني مرضاً نفسياً، ربما يئلذ بتعذيب الأنثى أو يعاني مازوخية تتطلب أن يتعذب سباً أو ضرباً حتى تكتمل نشوته.

تراودني رغبة في تفتيش حقيبتها التي تركتها بالسيارة، أفتحها، أنفقد أشياءها، ليس سوى عباءة سوداء، وغطاء رأسها الذي خلعته، وغطاء وجه أسود مما تضعه السيدات المنتقيات.

تعجبت من وجود نقاب في حقيبتها، هي التي التقيتها بوجه مكشوف! لماذا تحتفظ بهذا نقاب؟! وشغلني عن غيابها التفكير في مسوغات وجوده في حقيبتها، وفيم تستخدمه، ولم؟!!

أنا -الآن -أعذب نفسي بانتظار سيدة غامضة، وأعذب نفسي
بالقلق عليها! هل أجد متعتي في القلق عليها؟

هل يعني ذلك أنني -أيضًا - أعاني عقْدًا نفسية؟ وأبرر لنفسي ذلك
بأن دوافعي الإنسانية، تجعلني أتحمّل مسؤولية انتظارها، ومحاولة
إنقاذها من مكروه، أو إبلاغ أهلها عن مكانها.

مرت خمسة وأربعون دقيقة الآن، منذ قدمت إلى هنا، ثم تحركت
وعدت، وهاتفها لا يزال مغلقًا.

الآن..وجب عليّ أن أقوم، بما طلبته مني في حال تأخرها عن
الموعد الذي حددته.

الحصار

"يا سيدي أنا مجرد بائعة متجولة، وهذه رخصتي فلماذا تحتجزونني وسط هؤلاء الناس الذين يعاملونني بقسوة، ذات مرة احتجرت فتحرر لي محضر تسول وأنا لا أتسول، أنا أعمل بائعة حيث لا أجد عملاً مناسباً أتكسب منه رزقي.. أرجوكم لي أم مسنة تنتظر عودتي، وربما حدث لها مكروه في غيابي، أنا حقاً لا أعرف شيئاً عن هؤلاء، ولا هم يعرفونني، يمكنك أن تسألهم".

هكذا بدلت صياحي بكنتيتي التي أعلنتها من قبل كمتسولة، كنت أعلن أنني متسولة، حتى يخرجونني كما حدث من قبل، الآن أخرج لهم رخصتي كبائعة متجولة، ربما أنجو من هذا الاحتجاز، الذي أوقعتني فيه سوء حظي، وكلما مر بنا رجل من رجال الشرطة صحت له، لكنهم جميعاً يعنفوننا، ويذهبون وكأنهم لا يسمعون سوى أصوات لا تعني لهم شيئاً، حاولت أن أبجل أحدهم بنداء: يا حضرة الصول، فغضب وزجرني بشدة، وعنفنتي سيدة منتقبة تقف بجانبني، نعتتني بالجهل لأنني أتحدث عن جهل بالرتب، أنا حقاً لا أعرف مكانة كل منهم أو رتبته، لا أستطيع أن أفرق بين ضابط وآخر من خلال ما يحمل على كتفه من قطع نحاسية.

توقف رجل شرطة نهري، وطالبي بالصمت في حضرة الباشا، أنا لا أعلم أيهم ذلك الباشا الذي يخشونه، لكنه منحني صياحاً جديداً ربما أفادني.

- يا باشا..يا باشا..يا باشا أنا بنت غلبانة باجري على أكل عيشي، ياباشا أنا معرفش حد من دول ولا كنت معاهم.
- هات البت دي يا أمين
- آه وحياتك خدني عند الباشا يا حاج أمين..
- اخرسي يابت

قامت بعض النسوة المنتقبات بدفعي من بين زحامهن بصعوبة، كن بدينات وأنا نحيلة، أفق على قدم واحدة بينهن، تنفست حين أصبحت خارج التخشبية، لكنني شعرت برهبة المثل أمام هذا الذي يلقبونه باشا، بعد أن زجرتني واحدة من النسوة، لجهلي وأفهمتي أن هذا الذي الذي سأمثل أمامه ضابط كبير.

- تعالي هنا يابت
- حاضر..حاضر يا باشا
- فين بطاقتك؟
- مش معايا سايباها في البيت يا باشا عشان ما تضعش مني واتبهدل في تطليع بدل فاقد

- بس اسكتي
- حاضر
- وريني الكارنيه
- اتفضل

قلب في رخصتي، وصمت متأففاً ثم أشعل سيجارته ونفخ دخانها بـضجر من دون أن ينظر نحوي، وأنا أقف أمامه مرتدية غطاء الوجه أنظر لأسفل حتى لا يعاملني بغضب وعنف، ثم بدا كمن نسي وجودي أمام مكتبه، وقام تاركًا المكتب وخرج، غاب قليلاً ثم عاد يصطحب شابًا ملتحيًا وهادئًا وغامضًا.

- شيلي النقاب يابت
- نعم
- إيه قلتك شيلي النقاب خايفة من إيه؟
- هاخاف من إيه يا باشا؟ حاضر أشيل النقاب.. حاضر

حدث هرج في التخشيبية أوقفه الضابط بصيحة منه، انهال بعدها رجال من الشرطة ركلاً وضرباً في المحبوسين حتى صمتوا تمامًا.

كنت قد خلعت النقاب عن وجهي وخلعت العباءة التي أرديتها فوق ملابسني أثناء تجوالي، ووقفت بملابس عادية وحجاب رأس ملون.

- اللبس ده لزوم الشغل ياباشا، أنا لما اخرج بالبس عشان لو معارفي أو جبراني شافوني ما يعرفونيش، أنا باحافظ بيه على كرامتي وسط أهلي وباحافظ على أكل عيشي.

لم ينظر الضابط لي، بينما سأل الشاب الذي أحضره معه إن كان يعرفني، فنفى أن يكون قد رآني من قبل.

- لك حد يضمنك يابيت؟

- ياباشا أمي وجوزها أو بنت خالتي، بس معرفش أوصلهم ازاي؟
خدوا مني التليفون بتاعي.

أمررجاله بإحضار هاتفي، ووضعها في شاحن كهرباء، فدق فور فتحه، أمر الأمين أن يرد فرد.

- ألو مين حضرتك...مين؟ لا مفيش الاسم ده، نعم.. لا ده تليفون واحدة في الحجز.

هكذا أنهى الأمين المكالمة، وأنا لا أعرف عن المتحدث شيئاً.

- ياعم أمين ليه قفلت ممكن حد يعرفني.

نهزني وتوجه للضابط بالحديث:

- ياباشا ده بيسأل عن واحد اسمه رضا، والأسامي اللي عندي مفيهاش رضا.

أمر الباشا الأمين أن يعطيني هاتفي لأطلب أحد أقاربي، فيضمنني لأخرج، وقبل أن يناولني الرجل هاتفي صاح الهاتف مرة أخرى فرد الأمين بإشارة من الباشا.

- أيوه في الحجز في القسم، تبلغ إيه ومين، ده حجز في القسم، عايز تبلغ تعالى وأعمل بلاغ بعد تمانية واربعين ساعة من الاختفاء.

أغلق الأمين الهاتف، وناولني إياه بإشارة من الضابط، كنت أود أن أنفقد الأرقام التي طلبتني أثناء احتجازي، وأعرف من كان يطلبني حين رد الأمين، لكن الضابط تعجلني أن أطلب أحدًا يضمنني، وأنا لا أرغب أن أخرج بواسطة زوج أمي، فسألت الضابط هل يمكن أن تضمنني سيدة وليس رجلاً، فوافق.

طلبت رقم ابنة خالتي مرارًا فلم ترد، ظللت أطلب هاتفها حتى صار خارج الخدمة، وقفت حائرة، هل أطلب أمي؟ أم زوجها؟

أخذوا هاتفي مرة أخرى، وأعادوني للتخشبية، وأنا أصيح أنني سأطلب أمي أو زوجها، لكن الضابط كان قد تعكر مزاجه، فلم يستمع

لصياحي، وترك المكان، وراح يخرج ويعود ويشرب الشاي ويدخن، ويتعامل مع القادمين والراجلين ويوقع أوراقًا، ويقابل أناسًا بترحاب وآخرين بغلظة، وأنا أجرب صياحًا آخر

- هاتو تليفوني وأنا اطلب أي حد يعرفني.

قلب الأم

هذا الدفتر الذي تضخم بفعل الأحداث، أكتبه من أجلك يا ابنتي، رجل الرجل الذي رفضته أباً، رجل إلى غير رجعة، كيف عاد وإلى أين رجل؟ لا أدري! لكنني أتمنى أن يصدق حدسي، وأن يكون رحيله بلا رجعة، رأيتهم يقتادونه من هنا كالمجرم الهارب، ولا أعرف ما الذي اقترفه من جرم، كل ما عرفته أنه رجل عاش بأسماء وكنيات مستعارة، واستخدمته الشرطة وأمنته للإيقاع ببعض المجرمين، هذا ما استطعت أن أحصل عليه في أيامه الأخيرة معي، كان يبدل ملابسه بأشكال مختلفة، يزعم أنه يبدلها كوننا نعيش في بيئة قريبة من القرى، ويتخفف من أعماله لتسهيل حركته بوسائل المواصلات، لم أسأله عن شيء، فظن أنه لا شيء يعنيني وتخفف من حرصه، ونسي بعض أغراضه، فدفعتني فضولي للبحث.

فاجأتني الحقائق التي كان يخفيها، حتى اسم وجدي الذي عرفته به، ربما لم يكن حقيقياً، وربما كان ذلك سبباً لهروبته من نسبك له، وبعد عودته ترك الأمر كما هو، ولم يكن يشعر بغضب كونك باسم رجل آخر، أما أنا فدعيني أخبرك أنني ارتاح لنسبك الرسمي باسم الرجل الذي تحملين اسمه بوثيقة ميلادك، أشعر أنني لو رحلت تركتك بنسب تفخرين به.

هاهو ذا يومي يمر، ككل يوم يمر وأنتِ في بعادك الاختياري
وعملكِ الاختياري، الذي لا يتاح لي فيه أن أعرف أين أنت الآن؟

نهارك كله سعي وكد، وحيثما كنت فقلبي دائماً حولك، أكتب لك
آخر صفحات يومياتي، قبل أن أتركها مكشوفة، لا يهم -الآن - من
سيقراها، كل ما يهمني -الآن - أن أضع الحقيقة أمامك .

لا أخفي عنك أنني سيدة لا تحسن الاختيار، ربما أنت لا تعلمين
شيئاً عن أسراري، عن كل ما صنعته بي الحياة، لا تعرفين لك عائلة
حقيقية، كنت دائماً التساؤل: "هل كنت أصنع تلك الأحداث بنفسي؟
هل جرفنتي أفعالي إلى نهر الأحداث الجاري، فخضته بكل ما فيه من
غناء، أم أنني كنت أسير لألنقيها، وقد كتبها القدر علي". .. يا ابنتي لا
تلوميني الآن فقد مرت سنوات عمري وهرمت، وأففال القلب المغلقة
على أسراره، أن الأوان لتفتح وها أنا ذي أتركها مشرعة أمامك.

هل باستطاعتي البحث عن هؤلاء الذين يشاركونني تلك الأسرار،
لأكشف لهم الحقائق؟ أبحث عن حسين، عن راضي، عن أسرتي
ليكونوا لابنتي سنناً لو تركتها؟ كيف ستستقبلين هذا الرجل الذي تحملين
اسمه بشهادة ميلادك؟ وكيف يستقبلك هو؟

أنتِ التي تجوبين الشوارع؛ بحثًا عن عمل، وتلتقين الناس وتتمرّسين في المهن، ربّما التقيت أحدهم صدفة من دون معرفة، ربما التقيتهم جميعًا في وقت واحد.

أكتب لك - الآن - يا ابنتي، أيتها الفتاة الشقية بقدرك وقدر أمك، أكتب عن أب لم تعرفيه حقًا، عن أب تعرفت إليه، وتتكّرت له، أكتب لك حين لا أتمكن من الحديث إليك في هكذا أمور، وأرجو أن تجدي أسراري بين يديك حين يعيّني الموت، ربما الآن، وربما غدًا.

بقي أن أقول لك أنني لم أكنُ أخدعك، حين أجبتك عن سؤالك المشروع في اختلاف اسم أبيك بين ما أناديه به، وما هو مسجل بشهادة ميلادك، قلت أنه وجدي هذا الاسم المعتاد، لكن حسين هو الحقيقة، حسين هو اللحم الذي أنجبك من جسد وجدي، ذلك الجسد الذي عاد، فوجدك كما أنت، لذا لم تتقبلينه أبًا، ولكنني أعدك يا ابنتي أنك إن التقيت حسين يومًا سيكون لك الأب الحقيقي، ابحتي عنه يا ابنتي، واتخذه أبًا يكن لك عونًا.

بقايا يوم طويل

ستغيب شمس اليوم.. وأنا لم أزل رهين هذه التي واعدتني أن أعيدها من حيث أتت، مللت الصوت الذي يطل عليّ من هاتفها المغلق، وأزعجني صوت الرجل، الذي أجاب على هاتف قريبتها، لم يعد أمامي سوى اللجوء لقسم الشرطة، هذا القسم الذي أخبرني به الرجل الذي أجاب على الهاتف.

أن تدخل قسم الشرطة بقدميك؛ فأنت لا تعرف عاقبة ما تفعل وما الذي ينتظرك، لكنني أفعلها، أنا ليس لدي ما أخشاه سوى أن يكون قد حدث مكروه لتلك السيدة.

أجلس أمام الشرطي لأخبره الحقيقة، ليس على سائق الأجرة سوى تنفيذ الطلب، وأنا فعلت ذلك، هذا عملي الذي أعيش منه أنا وأسرتي، ولست كاذبًا يا سيدي.

طلبت الرقم مرة أخرى، رد رجل يقول إنه بقسم الشرطة، أبلغني أن الهاتف الذي أطلبه يخص إحدى المتسولات المحتجرات لديهم، وهي مقبوض عليها ضمن مجموعة من المناوئين للنظام في مظاهرة بوسط البلد.. ماذا يعني ذلك؟ في هذا الأمر شيء غير واضح.. متسولة تسير

ضمن مظاهرة ضد النظام؟! ربما نظّم المتسولون والمتسولات مسيرة أو مظاهرة يطالبون بحقوقهم.

أقطع الطريق إلى قسم الشرطة بوسط البلد تاركًا، ذلك المكان الذي قضيت فيه ثلث نهاري، أمر بذلك النفق الذي شهد اشتعال شرارة الشهوة، تحضرني اللمسات ولا تحركني، أشعر أنني عدت في رحم النفق جنينًا، تتعسّر ولادته رغم ما يتيحه النفق من سرعة السير، تتضارب في رأسي الاحتمالات كلها من نفحة الحياة، وحتى شهقة الموت.. ماذا لو أن تلك السيدة منحها الله حياة جديدة تختلف عن حياتها السابقة، فتعيش في كنف الرجل وتمتع بأمان.

لو أن أبواب السماء كانت مشرعة لها حين طالبتني أن أدعو لها؛ لنفوز بإعجاب الرجل، فيجزل العطاء، وكان هذا العطاء منحة سخية، توفر لها حياة كريمة، لو أن دعواتي المبهمة لها أمام ضريح الحسين فتحت لها أبواب السماء، لا أدري ماذا كنت أطلب من السماء لها، وربما تلاقت حيرتي بدعاء المتوسلين حول الضريح.

أنا أشطح بعيدًا في أمنيائي، وكل ما أرجوه ألا يكون قد أصابها مكروه، حتى لو عادت كما هي.

أخرج من النفق لاتساع الطريق، تاركًا طالبي خدمة التوصيل، يشيرون لي، حتى وإن كان بعضهم على نفس الطريق.

المشاهد في قسم الشرطة تثير في نفسي التردد، هل أكمل حتى أصل إلى المسؤول أم أترجع، قوة ما تدفعني أن أوصل، أسير خطوات بطيئة في الردهة الطويلة، رغم كثرة الناس الذين يجيئون وغيرهم يذهبون، لا أجد من أستطيع سؤاله ويجيب، الخارجون بعضهم شارد وبعضهم غاضب وبعضهم بلا علامات شعورية على وجهه، وهناك أيضًا هؤلاء الذين يحملون على وجوههم علامات فارقة كالخارجين من حرب.

حتى هؤلاء الضباط الصغار الذين يسرون ثنائيات وثلاثيات وفردى، تسألهم ولا تجد منهم ردًا، أصادف شابًا ملتحمًا يسير منفردًا، يرتدي جلبابًا قصيرًا، يخرج من باب مواجه، أحكي له، وأسأله إن كان يعرف إلى أي الغرف يجب أن أتوجه لأجد ضالتي، يطيل النظر لي كمن يتحقق من وجهي، ثم يشير لي على نفس الباب الذي خرج منه، أسير نحو الباب بتردد، أستجمع عزيمتي وأقرر الدخول.

يفاجئني المشهد، إنه مكان احتجاز المقبوض عليهم، يكتظ بالمحتجزين، نصفه للرجال والنصف الآخر مفصول بحاجز يضم نساءً منتقيات ومحجبات من أعمار مختلفة، أتجول ببصري بين مكان السيدات، انظر الوجوه المكشوفة والعيون المتقدة في وجوه تستتر خلف نقاب، ترى من تكون صاحبة الرقم الذي أحمله؟

يسود الضجيج وتتقاطع الجمل فلا أميز سوى قول رجل غليظ
يأمرني أن أغض البصر، أتلفت حولي لأجد من أتحدث إليه، فأصطدم
بشرطي مسرع نحو الحجز، يتوقف ليسألني:

- أيوه عايز إيه؟ جاي لمين؟

أتلعثم قليلاً قبل أن أجيبه وعينا ي زائعتان في المكان، يدفعني
الشرطي أمامه، يبعدي عن مكان الحجز، ويكلمني بلطف؛ عارضاً
خدماته بين الترهيب والترغيب.

- حضرتك أنا جاي بخصوص رضا، أنا اللي كلمتك في التليفون
وقلت لي تعال بلّغ.

- يعني أنت عايز تعمل بلاغ؟

- يا حضرة الأمين أنا طلبت رقم كنت واخده من زبونة عشان لو
أتأخرت أنقذها، رد عليا حد من هنا من القسم قال لي تعال
بلّغ.

نظر الأمين لي نظرة مريبة، وصمت طويلاً يتأمل وجهي، وأشعل
سيجارة نفخ دخانها بوجهي غاضباً.

- هو يوم مش فايت من أوله، مش ناقص غير المجانيين كمان.

حينها أيقنت أن حديثي غير مترابط، وأن الأمين يشك أنني غير متزن، واحترت كيف أوضح له الأمر، حينها علت أصوات المحتجين واختلطت بأصوات النساء المحتجات، كانت هناك مشادة بين الرجل المتشدد وآخر يقف بالقرب من مكان احتجاج النساء، ادعت سيدة من المنتقبات أنه تحرّش بهم لفظياً، فتوجّه الأمين إليهم زاجراً مهدداً.

قررت أن أترك هذا المكان، وأعود إلى الشارع لأواصل طريقي وأفكر في وسيلة أخرى للوصول لهذه السيدة، ماذا لو أنني انتظرت للغد، وحاولت الاتصال بها أو بقريبتها، عزيت نفسي أن ما أخشاه قد يكون حدث بالفعل ولا جدوى من بقائي هنا.

تحركت خطوات ناحية الباب الذي دخلت منه، فاجأني صوت جهوري كالرعد من خلفي يأمرني بعنف أن أتوقف.

- على فين يا افندي هو دخول الحمام زي خروجه، فين بطاقتك؟

حينها يدخل الضابط متجهاً إلى مكتب في نهاية القاعة، فيقودني الأمين إليه بعد أن تسلّم بطاقتي.

سيدة الصدفة

"قم يا سيد الحكايا فالمرأة التي تسامرها غارقة في الغياب" أشعر أنني أحتاج إلى الهروب لاتساع الطريق، أترك المرأة النائمة في فراشي، وأفود سيارتي؛ عابراً الطرق المزدحمة والميادين إلى وجهة غير محددة؛ تاركاً نفسي لتشابك الطرقات وتفرعها هائماً بلا هدف، تتزاحم الأفكار في رأسي، فلا استطيع الإمساك بخيط واحد منها.

حضن سيدتي التي ربتني وأحضان النساء اللاتي قابلتهن، يد السيدة التي كانت تمسك يدي في السوق وأياد كثيرة لامستني، عيون النساء اللاتي يعطين وعيون النساء اللاتي يأخذن.

حديث المرأة حين تبوح، وحديث أخرى تستند العطف، أحاديث الابتزاز، والأحاديث التي تضمد الجراح، نظرات الانبهار ونظرات الهلع، لمسات الجرة ولمسات الاكتشاف.

ثم أنا أمام امرأة تجمع كل ما سبق لا أدري ماذا أفعل، مغلق بابي عليها لا تملك الفرار لو أرادت، لكنها اختارت أن تنام بأمان وهدوء.. أستسلم للطريق حتى أنني لا أعرف أين أنا، أكاد أصدم سيدة مسنة تحمل على رأسها سلة مسطحة مغطاة بقماش بلي من كثرة الاستخدام، أوقف لها الطريق؛ لتعبر، أتوقف جانب الطريق، أنزل.

أنفحص المرأة، وأسألها إن كان قد حدث لها مكروه، لكنها تجلس على الرصيف، وتشير لي ألا أنزعج، تومئ أنها بخير، أجلس بجانبها على الرصيف، أحاول طمأننتها، وأسألها إن كانت تشعر بالوجع.

أي وجع يا ولدي، ده حالنا كل يوم، نعدي الطريق رايح جاي، نعرف نقيس خطواتنا عليه، لكن ساعات قوتنا تخوننا، وتلخبط حساباتنا، والطريق مش بيقدر، ومالوش كبير غير ربنا، واللي مكتوب له العيشة بيكمل، واللي خلص دوره بيروح، قوم يا ولدي كمل طريقك.

أمسك يدها بحنو فيسري في شرياني شعور دافئ لا أتبينه، تتلقاني عيناها بومض غامض، بريق غاص في أعماق الحزن، وغطته غيمة لا تمطر، يغلفنا صمت حزين، أستيقظ منه ولا زلت ممسكًا بيدها، تسحب يدها بهدوء، أشعر كأن دماء يسحب من وريدي.

- إلى أين تذهبين دعيني أوصلك

تشير إلى شارع فرعي، وتخبرني أنها من أهل المنطقة، وستجد مركبة صغيرة (توكتوك) توصلها إلى بيتها.

إحساسي يلح علي أن أذهب معها حيث تمضي، أريد أن أتقرب إليها بشيء ما، تخبرني أنه لا يمكنني الدخول إلى شوارعهم الضيقة بسيارتي.

- سأترك سيارتي في مواقف السيارات بالطريق العام، وأركب معك، أود لو أشرب كوبًا من الشاي تصنعينه بيديك

صحبتها إلى حيث تذهب، وسط تعجب الناس من وجودي معها، هي أيضًا لم تبرر لأحد رغم تطفل الناس وفضولهم، وطوفان التعليقات والأسئلة وسط الأزقة وعلى أبواب البيوت والدكاكين.

في بيتها المكون من حجرة واحدة بمدخل بيت قديم شاهدت خيوط ماضيها تتشابك مع حاضرها في لوحة سريلية، على نافذتها تنسدل ستارة من خيوط مشغولة يدويًا تتشكل فيها رسوم طيور وأزهار، على الحوائط بروز ضم صورًا لها في أزمنة مختلفة، يتوسط البرواز الكبير صورة لصبي دون الخامسة.

المقاعد قديمة وكأنها أتت من متحف، جلست قبالتها على مقعد خيزران، ناولتني كوب الشاي، وأنا أنظر في عينيها، وأفكر كيف أترك لها مساعدة مادية، يبدو أنها قرأت في عيني ما يجول بخاطري، أَخْرَجَتْ من صدرها كيسًا من القماش القديم.. وضعت ما به على طاولة قديمة، بضعة عملات نقدية معدنية وورقية من فئات مختلفة،

ربما كانت حصاد يومها من الكد والعرق، أخبرتني ألا أفكر في أن أغدق عليها عطفًا ماديًا، فهي تعمل، وتكسب قوتها، ولا تتسول.

ما الذي أبحث عنه في تلك السيدة المسنة التي وضعتها الصدفة على طريقي؟ أنا إنسان صنعتني الأقدار، تفاصيل حياتي كلها قدرية، لذا أنا أؤمن أن وراء كل صدفة قدر، سيتدخل في تفاصيل الحياة ويضع علاماته.. مثل تلك السيدة التي تجلس قبالي لا تحتاج إلى أسئلة واستفسارات ومحاولات للخوض في تفاصيل حياتها، لا تحتاج سوى الصمت والتأمل وأنت ترتشف شاي صدفتها بهدوء، لتسمع بوح النفس في حكايا تفيض عفوية.

انساب صوتها من أعماق الزمن الذي خط تجاعيده على وجهها وجبينها المتغضن، وكأنها سكنت دهرًا بلا حديث، ثم تفجرت بوحًا يختصر مسافات الزمن في جمل تعريفية، لا تحمل شجن التباكي وتقل الهموم، ولا تسعى لاستدرار العطف، يسري صوتها من المنبع بهدوء؛ ليعبر السمع، ويتغلغل في الضمير.

أنا سيدة وحيدة، لا عائل لي، لا زوج ولا ابن، لست من هذا المكان، وإنما جنّت أعيش فيه بعد أن مررت بظروف صعبة، حتى استقر بي الأمر أن أعمل بائعة خضروات.

أذهب كل يوم مبكرًا إلى بائعي الخضروات الكبار في سوق كبير
يسمونه سوق العبور، أحمل بعض ما لديهم من الخضروات والليمون،
وأركب في صندوق سيارة نصف نقل مع بعض النسوة من البائعات
الأخريات، ينزلنا السائق كل واحدة حسب مقصدها، ويعود ليجمعنا في
نهاية اليوم فيعيدني حيث وجدنتي أعبّر الطريق.

نعم كان لي زوج وبيت بالقرب من نفس المكان الذي أفتشره لبيع
خضرواتي، أفقت ذات مساء من غيبوبة مرضية، لم أعرف طول الزمن
الذي استغرقتة، لأجد نفسي وحيدة.

الآن لم يعد هناك من يعرفني سوى القليل من كبار السن، الذين
يتغاضون ويتناسون، هم الآن ينادونني باسم أم الغايب، وأنا لا أبالي،
وهنا حيث أعيش ينادونني باسمي فقط (سيدة)، ليس لي إخوة هنا، أما
أخواتي فقد تفرقن بعد الزواج كل منا في بلدة، وانشغلت كل واحدة ببيتها
وأسرتها، وهذا الغائب الذي أكنى به (أم الغايب) فهي تسمية جاءت
على لسان الناس بعد ضياع ولدي، وانفصالي عن زوجي، قيل لي أنه
طلقني، وتزوج بأخرى تأتي له بولد آخر.

ساعدني أهل المروءة ببعض المال، فاستثمرته هكذا حتى أوصل
الحياة، وها أنا أعيش بين هؤلاء الناس، الذين يعاملونني بلطف حينًا
ويغلظة أحيانًا، ولا تشغلني طبائعهم.

يبدو أنني أسرفت في الحديث حتى أثقلت عليك، لا تؤاخذني، أنا لا أتحدث كثيرًا رغم الزحام الذي اجتازه يوميًا، والأحاديث كلها لا تخرج عن شأن البيع والشراء والانتقال.

- الآن قل لي من أنت واذهب لتواصل طريقك.
- أنا سيد اسمي سيد.

الفخ

- حازم حسين المصري، عايزني اقتتّع إنك جاي تبلغ عن تأخر زبونة ركبت معاك وعطتك رقم قريبتها عشان لو حصل لها حاجة!
- دي الحقيقة يا باشا.

الضابط الذي يسألني لا وقت لديه للتعجب من أمر مختلف، وذلك لا يعني له سوى تقليب الأمر على أوجه الشك، والتحقق من الشخص الذي يمثل أمامه، هكذا أقف أمام الضابط الذي أسلمني له الشرطي ولا أعرف هل سأنهي الأمر، الذي جئت من أجله، أم سأبقى هنا طويلاً يتحققون من خلو أمري من الجرائم.

- يا سيدي أنا أبحث عن تلك التي أحمل رقم هاتفها، ربما ظهورها يحل لغز السيدة الأخرى.
- تقول أن اسمها رضا ذلك ما أبلغتك به المرأة الأخرى، وليس لدينا بالحجز واحدة بهذا الاسم.
- لكن الهاتف المسجل لدي رد عليه شرطي أخبرني أن هذا الهاتف لمتسولة محتجزة هنا.

طالبني الضابط أن أطلب رقم الهاتف المسجل معي في الورقة، فطلبتة حينها جاء أمين الشرطة يحمل الهاتف.

قال لي إنه هاتف متسولة تدعى صابرين وليست رضا، كنت أود أن يسمح لي الضابط بالانصراف، فأعود إلى بيتي و أفكر في وسيلة أخرى للاطمئنان على السيدة الغامضة أهاتفها غدًا أو بعد غد أو تأخذني المشاغل وأنساها.

هممت بالوقوف استعدادًا للانصراف الذي انتظر أن يأمرني به الضابط بعد أن تحقق من بطاقة هويتي، لكنه فجأة طلب إحضار الفتاة التي تدعى صابرين.

جاءوا بفتاة لا تكف عن الصياح معلنة أنها لا تعرف هؤلاء المحتجزين معها، كانت تكمل توسلها للضابط حتى يخرجها أو يترك لها هاتفها، لتكرر طلب من يستطيع أن يضمنها، نهرها الضابط وأمرها أن تصمت.

- تعرفي الراجل ده يابت

- أول مرة أشوفه والله أنا معرفش حد هنا

أخبرها الضابط أن سيدة أخرى أعطتني رقم هاتفها، زاد الخوف على وجه الفتاة، وهي تؤكد أنها لا تعرف أحدًا، وأنا بعد صخب الفتاة وخوفها

أنتظر أن يأمرني الضابط بالانصراف، لكن يبدو أن دخول مركز للشرطة رغم معاناته يعد أمرًا أهون من انتظار الخروج منه.

حسم الضابط الموقف بسؤاله لي: منذ متى وأنا أعرف السيدة التي أعطتني رقم الفتاة، مللت من تكرار الحكاية، لكنني أخبرته أنني ألتقيتها أمس ووعدتني أن أمر لأعيدها من حيث أتت، وقبل أن يداهمني سؤاله عن مزيد من التفاصيل قلت له أنني أوصلتها من الدقي لمنطقة مصر الجديدة ميدان (تريومف)

- اسمها إيه الست دي؟

- عزيزة ياباشا هي قالت اسمها كده مش عارف ده اسمها حقيقي

ولا إيه!

بدا الهلع على وجه الفتاة وصاحت بخوف تتساءل ماذا جرى لعزيزة، دق الضابط على المكتب أمامه، وقف بعصبية وتوتر، أشعل سيجارة، وتركني واقفًا أمام الفتاة، وراح ينفث دخانها أمام مكان الاحتجاز الذي هدأ ضجيجها، وأنا أقف أمام الفتاة لا أدري هل أحدثها فتنكشف لي بعض التفاصيل، أم أنتظر حتى لا أغضب الضابط، كانت الفتاة أجرأ مني كونها لا تنتظر الأسوأ، فاجأتني بحديثها.

- أنا منتظرة حد يضمني عشان أخرج تضمني وبره القسم تعرفني

حصل إيه لعزيزة؟

أعطيتها إشارة بعيني تعني الموافقة، خرج الضابط من القاعة ثم عاد يصطحب أمين الشرطة، وهو يحمل دفتر كبير وبطاقات هوية جلس على طاولة قريبة.

- ياباشا أنا أضمن صابرين عشان تخرج تدور على بنت خالتها.

أشار الضابط لأمين الشرطة أن يكتب استيفاء الضمان لخروج الفتاة بدفتر الأحوال، حينها وضع أمين الشرطة بطاقتي ورخصة الفتاة أمامه، ثم توقف عن الكتابة، ونظر لي بشك، وناول البطاقتين للضابط.

- صابرين حسين المصري، حازم حسين المصري؟ أنتو حكايتكو إيه؟!

اللقاء بلا روح

اليوم بطيء وممل، كنت أود قضاءه خارج البيت، لكن أن ينتهي بالذهاب إلى قسم الشرطة، لضمان خروج ولدي هذا ما لم أكن أتوقعه، ولم يقل لي حازم ابني ما الذي أوصله ليد الشرطة، لذا أنا أسير أقلب الاحتمالات كلها، كي أفترض حلولاً.

المكان من بيتي إلى قسم شرطة الأريكية ليس بعيداً، ولكنه مزدحم بوسائل المواصلات المختلفة والمارة والبائعين من كلِّ صنف، أن تصل إلى هذا المكان على قدميك أسهل من استخدام وسيلة تستهلك الوقت في التكدس المروري والتوقف ومعاودة السير، لكن السير - أيضاً - ليس مأموناً وسط هذا الزحام.

أتوقف كثيراً، وأتردد في العبور، حتى مر بي شاب من الجيران يعمل على مركبة صغيرة بثلاث عجلات؛ لنقل البضائع الخفيفة بين التجار، يسألني عن جهتي، ويصرّ الشاب أن يحملني معه، حيث يتوافق مع سيره بالقرب من نفس المكان؛ لجلب بضائع، ليس لي مكان في المركبة، فالشاب يركب على العجلة الأمامية للقيادة، بينما في الخلف صندوق البضائع، ساعدني الشاب حتى صعدت لأجلس فيه.

جلست القرفصاء في الصندوق الخلفي واضعاً رأسي بين ركبتي، لم أكن أحتمل رؤية الزحام من موضعي هذا، لا أدري كيف طال الطريق القصير للوصول إلى المكان، حتى تحمل طول شريط الصور والذكريات، التي راودتني.

جابت ذاكرتي صور المركبات كلّها، التي وطأتها، وتنقّلت بها، واجتزت الموانع الصعبة، صور التفاخر والعزة ونحن نشير بعلامات النصر بعد العبور من فوق دبابية، لاتزال مزاراً بالمتحف الحربي، صور السيارات التي تنقلنا في أول إجازة لنا بعد النصر، والناس يشيرون لنا بمحبة، كانت قد بدأت تدهمني صور الطائرات والمطارات والسفر، حين توقّف الشاب أمام قسم الأزيكية وأنزلني.

أمام الضابط الشاب، كان عليّ أن أجتاز توبيخه ولومه على ترك بنتي وسط المخاطر، وأنا رجل محارب قديم، كما ذكرت له في تقديمي لنفسي، كان عليّ أن أستمع له بصمت، وأقدم بطاقة هويتي؛ لأضمن خروج ولدي، وتلك التي تحمل اسمي، وأن أبعد عن وجهي كل تعبيرات الدهشة والتعجب من الصدف، وأنقبل الأمر بهدوء.

في الطريق إلى قرية أبو النمرس، حيث بيت الفتاة خيم علينا الصمت، لم أحدث أنا ولم أسأل، ولم تسألنا تلك التي جئنا بها من قسم

الشرطة عن تفاصيل، ولم نسألها، أما حازم فبدا كأنه أنهى معركة أربكته كثيراً، وخرج منها بصمت غامض.

كيف سألتقي سميحة؟ ذلك هو السؤال الذي شغل تفكيري طوال الطريق وجعلني صامتاً، أنا أفترض المفاجآت واستعرض تفاصيلاً..ربما تحدث، لا يمنع ذلك من مرور بعض الذكريات والأحداث الماضية، ومن وقت لآخر كنت اختلس النظر إلى الفتاة الجالسة بالمقعد الخلفي، هي صورة من أمها سميحة، لذا لم تمنحني ملامحها فرصة تتبع الشبه بينها وبين من أنجبها.

الشوارع تضيق وتتسع، والمركبات تتزاحم وتبطنى، ثم تعود مسرعة، والناس يعبرون الطرق بلا حذر.. يعتمدون على مهارة السائقين في توقع مفاجآت الطريق.

على الأرصفة تجلس بائعات من الأعمار كلّها، تعرضن بضائع من كل الأصناف، بعضهن يجتزن الزحام، في مسافات التوقف لعرض ما لديهن، في الإشارات يقف صبية وشباب في انتظار توقّف السيارات؛ لتقديم خدمة مسح الزجاج الأمامي لقاء مبلغ زهيد، وهناك باعة المناديل الورقية، وغيرهم.

دخلنا نطاق محافظة الجيزة، هناك لافتة كتب عليها (حي جنوب الجيزة يرحب بكم) هل هي نفس اللافتة التي مررنا بها أنا وسميحة قبل

ولادة تلك الفتاة؟ لا أدري لكني لا أرى البيوت الصغيرة التي تقف على حد الطريق بين المدينة والقرى، لم يتبق منها سوى القليل المغلق، الذي لا تبدو عليه علامات الحياة، بينما تجمعت مساحات بعض البيوت الصغيرة إلى بعضها، وتطاوت لأعلى، فأصبحت عمائر عالية، يحتل طوابقها الأرضية معارض فخمة لأجهزة وآليات وسيارات، ومن عجب هذا الطريق المتسع الذي يصل مدن الصعيد بالقاهرة أن يظل عشوائيًا، تسير فيه كافة المركبات والكائنات جنبًا إلى جنب، قطع شرودي صوت الفتاة نطقت أولى كلماتها منذ خروجنا من قسم الشرطة.

- خلاص قرينا هتدخل من أول شارع يمين.

فتحت لنا الفتاة بابًا البيت فدخلنا، البيوت روائح ونبض همس وحياء، وهذا البيت الذي تسكنه سميحة مرتب وأنيق رغم بساطته، تكسوه نفس الرائحة، التي كانت تفوح من بيوتنا ونحن صغار، رائحة الطبخ المختلطة بروائح العطر، وهمس موسيقي لا تعرف مصدره، وحين نتبعه لتتبين نغمات أغنيته، يغيب ويحتل فضاؤه أصوات الباعة ونداءات النسوة وضجيج الصبية.. على الطاولة التي تتوسط المجلس وضع دفتر قديم ومضاف إليه أوراق جديدة، يجاوره قلم.

طالبتنا الفتاة أن نجلس، ريثما تأتي أمها من الداخل، توقّف بنا الزمن عند تلك اللحظة، حازم غارق في تأمل دهشة الصدفة، وأنا لا أملك ترتيب توقعاتي للحظة القادمة.

وكأن الأوراق الساكنة في الدفتر تتاديني، وأنا أتهرب من إلحاح فضولي لفتح تلك الأوراق، حتى خانني صمودي ففتحت، قرأت السطور الأخيرة من آخر صفحة، ولم أكمل حين جاء صوت الفتاة تصيح وتبكي.

توترات معتادة

"هكذا جئت أنا حازم حسين المصري أحمل التوترات التي خطها زمن لم أعشه". خضنا أياماً عصيبة بعد موت السيدة سميحة، ظل أبي في غرفته منعزلاً بعد عودتنا من مراسم دفنها بمدافن عائلتنا ظلّ حريضاً على تلك الأوراق، التي حملها معه من بيت السيدة سميحة، يقرأها في غرفته ثم يخفيها إذا خرج لأمر ما، وتلك الفتاة التي أصر أبي على حملها معنا أيضاً، تحيا بيننا في صمت، لا أدري هل نسيت ابنة خالتها المخفية أم شغلها موت أمها وحزنها، أخي الأصغر لا يعلم شيئاً عما يحدث ولا يسأل.

عشت أياماً لا أخرج للعمل على السيارة، لا أدري كيف أخرج من جديد لأحمل الناس من مكان لآخر.. هؤلاء الذين يحملون أسرارهم في صدورهم كقوارير الزجاج، لو اصطدمنا بها؛ لتهدمت ونالنتنا بعض شظاياها.

اليوم الذي نفضت فيه سكوني وتحررت من قيود نفسي، وقفت أمام مرآتي وتجردت من ملابسي، لم أر سوى رجل تراحمت داخله التفاصيل المتناقضة، أنا ابن تلك السنوات المتسارعة الأحداث، وريث هؤلاء

الآباء، الذين صدموا في إنجازاتهم، ولم نأت نحن بلمحة تشابه بيننا وبينهم، هل نحن أسعد حظاً منهم؟

عدت لفراشي كما أنا والبيت غارق في سكونه، واستدعيت طيف تلك التي غابت، كانت الخيالات تذوب كلما ومضت، ولم يبق منها سوى امرأة تستجدي الدعوات لتتعم بوقت سعيد وعطاء.

ليس أمامي إلا أن أغتسل وأخرج؛ لأبدأ يوماً جديداً، لا بأس من حمل الناس وحكاياتهم، في البيت معي -أيضاً- تسكن حكايات بعضها تكشف لي وحكايات أخر لا تزال طي الكتمان.

على الباب قبيل خروجي واجهتني صابرين أو رضا كما يدعونها، أبلغتني أنها تلقت رسالة من ابنة خالتها عزيزة، تخبرها أنها بخير.

في الشارع لاحظت أن أم الغائب بائعة الخضروات والليمون لا تجلس في مكانها، لا أدري ما الذي جعلني أنتبه لغيابها على الرغم من أنني في كثير من الأيام، أروح وأجئ من دون أن أنتبه لها، المرأة التي اعتادت أن تأتي في موعد منتظم، وتذهب في وقت محدد، ولم تتأخر يوماً عن مواعدها، اليوم لا تجلس في مكانها، شغلني الأمر وأنا في طريقي إلى إخراج السيارة من مكنها، حتى أدت المحرك وتحركت.

أواجه الشوارع المزدهمة والطرق الواسعة السريعة، والصبية، بأوعي
المناديل الورقية والمعطرات عند الإشارات، والبنات عارضات لوازم
الهواتف والورد وأشياء أخرى، وطالبي خدمة التوصيل مختلفي الأشكال
والأهواء.

- مصر الجديدة يا هندسة

هكذا أوقفتني سيدة في العقد الثالث، كدت ألبى طلبها، لكنني
ترددت في آخر لحظة قبل أن تضع قدمها في السيارة، واعتذرت.

خاتمة

ها أنا ذي أجاهد أن أعود إليكم من بين زحام السطور التي شكلت الحكايات، وهؤلاء الذين اشتبكوا معي رافضين مصائرهم، غاضبين من تداول أسرارهم في رواية، مهددين أن يظهر من بينهم يوماً من يكتب عني مفشياً أسراري.

أنا السيدة التي تعيش ضمناً، ترسم الشخص، وتلحق نفسها بشيء منهم، تدخن كي تستلهم من سحائب التبغ شغف الحديث، تكتب في الشرفة، كي تحيا وسط الضجيج المونس، تسير في الأسواق من دون هدف، تبتاع بعض الصغائر، تشاكس بائعاً.

أنا تلك السيدة، التي تمرق تاريخها بين حلّ وترحال، عشت أشكال الحيات، التي تعاش بتجارها الحلوة والمرة.

أنا تلك الطفلة القادمة بعد الاكتفاء من إنجاب البنات، وتلك البنت التي أحببت حين يكون الحب ترفاً، وأنا واحدة من سيدات كثر يخرجن كل صباح للعمل، ويعدن لرعاية أسرة، هن اللواتي يغدقن في العطاء بلا مقابل.

وأحيانًا، أكون أنانية أوشريرة، أو كما يراني من لا يعرفني حقًا،
محاربة عنيدة حينًا، ومسالمة أحيانًا أخرى، أنا سيدة المتناقضات
كالبحر، الذي أعيش بجواره، وأحبه وأخشاه.

وأولئك الغائصون في متن النص الذي قرأتموه، هم أنتم كما رأيتم
وعايشتم حكاياتكم، فسلام عليّ حين أغوص في أعماق بحركم المتقلب،
وسلام عليكم قبل أن تتبض بكم أوراقِي، وسلام عليكم بعدما تشكلتم،
سلام على الراوية والرواية.

تمت

سعدية عبد الحليم، الإسكندرية

2020/8/14

محتويات الرواية

4.....	تعليق قبل البدء
11.....	فاتحة السرد
13.....	على الطريق
35.....	رضا
51.....	عزيزة
64.....	حسين المصري
83.....	سميحة
95.....	أوقات عزيزة
105.....	وقت حازم
109.....	جدال النفس
113.....	سيد الحكايا
119.....	البحث
123.....	الحصار
129.....	قلب الأم
138.....	سيدة الصدفة
145.....	الفخ
149.....	اللقاء بلا روح
155.....	توترات معتادة
159.....	خاتمة

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر

دار نشر - دراسات - استشارات - دورات تدريبية
44 شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية، مصر
موبايل : 01018081590 هاتف : 034830903

بريد إلكتروني : levant.egsy@gmail.com

موقع إلكتروني : www.levantcenter.net

مركز ليفانت أحد فاعليات شركة ليفانت لتنمية الموارد البشرية

ش. د. م. م. وفق قانون 159 لسنة 1981م ولائحته

ب ض : 545/584/507 - س ت : 9882

يهدف المركز لإقامة دورات وورشات عمل وندوات ومحاضرات ويستثمر في تطوير الموارد البشرية وتنميتها، ويقدم دورات ثقافية وتعليمية متنوعة، ويهتم بإعداد باحثين في مجال الدراسات الثقافية وعلم الكوديكولوجيا وتحقيق النصوص التراثية، والاهتمام بأصحاب المواهب في الكتابة السردية والمسرح والسينما، وتدير إدارة المركز موقعًا إلكترونيًا شاملاً لنشاطات المركز كلها، علاوة على إتاحتها تحميل الكتب والمقالات والفيديوهات المختلفة مجانًا، وعبر سوق كتب إلكتروني وورقيّ للجدد بأسعار منافسة، كما أنّ المركز ينشر المقالات والكتب ورقياً وإلكترونيًا وفق عقد مع أية مؤسسة أو دار نشر أو مؤلفٍ إفراديًا.

